الرواية المُقتبس منها المسلسل الكارتوني الشهير «عدنان ولينا»

رواية

مكتبة ٦١٢

ألكسندر هيل كي

المد الهائل

ترجمة: ميرنا الرشيد

إهداء

إلى عدنان الشجاع الذي

أشعل حماسة طفولتنا

عبسي الصديق الوفي

لينا الروح الطاهرة

ناصر القبطان الضحك

إلى أيام طفولتنا



اسم المؤلف: ألكسندر هيل كي

Author: **Alexander Hill Key**

عنوان الكتاب: المد الهائل

Title: **The Incredible Tide**

ترجمة: ميرنا الرشيد

Translated by: **Myrna Al-Rasheed**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2020**

First Edition: **2020**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



ألكسندر هيل كي

مكتبة ٦١٢

المد الهائل

الرواية المُقتَبَس منها المسلسل
الكارتوني الشهير «عدنان ولينا»

ترجمة : ميرنا الرشيد



مقدمة
ألكسندر هيل كي

كاتب خيال علمي أمريكي، وُلِد عام 1904 في مدينة لابلاتا بولاية ماريلاند الأمريكية. انتقلت عائلته بعد فترة قصيرة من ولادته إلى مدينة فلوريدا، فنشأ فيها وترعرع. كان والده تاجر قطن، وواحداً من أوائل مالكي مناشر الأخشاب ومحالج القطن في تلك المنطقة. بعد وفاة والده مباشرة، أحرقت عصابات الليل أعمال العائلة، وقُتِلَت والدته بعد ذلك بوقت قصير. فقضى «كي» ما تبقى من طفولته متنقلاً بين العديد من الأقارب.

التحق بمدرسة الفنون في شيكاغو بين عامي 1921 و1923. وعندما ناهز التاسعة عشرة باع أولى لوحاته المرسومة. وتمكّن لستة عشر عاماً، بما حصده من صيت ذائع في الرسم على المستوى الوطني، من كسب رزقه والتغلب على الفقر والجوع. عانى بعد ذلك من تدهور في وضعه المادي، فاضُطرَّ إلى التحول إلى الكتابة كونها الوسيلة الوحيدة للحصول على تعويضات مالية من كفلاء وممولين.

كتب ذات مرة أن جيل المراهقين من الفتيات والفتيان هم الوحيدون الذين يستحقون أن يكونوا محور كتاباتنا. لذلك كان يخاطب هذا الجيل في رواياته التي اتخذت نمط الخيال العلمي، وكل ما يتعلق بعالمهم وخواطرهم وأفكارهم، بهدف إيقاظ رد فعل محرّض في نفوس قرائه تجاه ما يُعرَف بـ«العالم العظيم المستتر خلف القشرة المرئية السطحية».

عُرِفَت شخوصه الغريبة بمظهرها الإنساني، وقُربها الوثيق من عالم

الطبيعة، وأن لها قدرات نفسية وجسدية قوية، وتمتاز بمَلَكة التخاطر مع الحيوانات. كما أنها قد تكون منبوذة من المجتمع والبيئة، تعيش حياة يسودها الاضطهاد والجور. كانت المناظر الطبيعية البرية الوعرة عنصراً بارزاً في معظم كُتبه.

عندما بدأ كتابة رواياته الخيالية، نقل عائلته إلى جبال كارولاينا الشمالية، في منطقة نائية من سلسلة جبال «سموكي ماونتن»، حيث بنى مع زوجته منزلاً ريفياً صغيراً. حاز عام 1972 على جائزة «لويس كارول شيلف» عن رواية «الباب المنسي». رحل عن الحياة وعن عالم الخيال عام 1979 في ولاية ألاباما، بعد أن أنتج مجموعة مُعتبَرَة من الروايات، تمحورت حبكتها الرئيسية حول ممارسة المجتمعات للعنصرية والإجحاف بحق مجموعة من الأفراد المتشابهين في التفكير، قرروا الانسحاب من النظام المجتمعي السائد، وتأسيس مجتمع خاص بهم، من منطلق أن الأشخاص الطيبين الكرماء يستحقون الفرار إلى مكان يليق بهم.

حظي عدد من هذه الروايات باهتمام مخرجي ومنتجي الرسوم المتحركة، فكانت رواية «المد الهائل» التي يروي «كي» أحداثها في صفحات هذا الكتاب، مصدر إلهام للمخرج الياباني «هاياو ميازاكي»، أحد أهم مخرجي ورسامي الرسوم المتحركة اليابانية، فحوّلها إلى مسلسل الأطفال التلفزيوني «كونان فتى المستقبل» عام 1978، في حين حملت النسخة المقابِلة له باللغة العربية عنوان «عدنان ولينا». وقد دُبلِجَت حلقاتها الست والعشرون، وعُرِضَت على الشاشات العربية خلال فترة الثمانينيات، وما يزال يُعاد عرضها حتى الآن.

المترجمة

تمهيد

تندرج رواية «المد الهائل» ضمن أدب الخيال العلمي، وقد نشرها «ألكسندر كي» عام 1970. وهي تحكي قصة كونان، صبي يعيش بمفرده على جزيرة صغيرة بعد أن أحالت الحرب العالمية الثالثة الأرض دماراً بفعل الأسلحة المغناطيسية. حينها انقلبت محاور الكرة الأرضية، وغَرِقَت القارات في المحيط، ولم يبقَ منها سوى بضع جزر صغيرة.

بعد أن نجا كونان من تلك الكارثة المؤلمة التي حلت بالأرض، وجد نفسه في عالم جديد مختلف تماماً عن العالم الذي عرفه من قبل.

الخلفية الدرامية

شكلت مجموعة من الأحداث الحبكة الرئيسية في رواية «المدّ الهائل»، وأضفت عليها العمق والنسيج المترابط، وتميزت أن أجزاءً منها نُسِجَت خصيصاً لهذه الراوية.

الغرب: بعد أن حل دمار هائل في الأرض، لم يَعد للعالم الغربي أي أثر. ولم يَنجُ منه سوى بضعة أشخاص، من بينهم كونان ولانا وجدها «تيتشر – المُعلم». وقد تجلى الغرب في ذكريات كونان على أنه مكان هادئ وادع.

اتحاد السلام: وهو قوة عظمى عالمية شنت حرباً ضد الغرب. تكمن المفارقة في أن السلاح الذي استخدمه اتحاد السلام لتدمير الأعداء، دمر الاتحاد أيضاً، ومحاه من الوجود.

التغيير: السلاح الذي صوبه اتحاد السلام كان ذا طبيعة مغناطيسية، وألحق ضرراً بالغاً في عمق الأرض. وغمرت أمواج المد العاتية سواحل العالم. وهذا ما يُعرَف حسب وصف شخصيات الرواية باسم **التغيير**.

النظام الجديد: احتلت مجموعة من الأشخاص مدينة اتحاد السلام الناجية من التغيير، وأطلقوا عليها اسم مدينة «إندستريا- المدينة الصناعية»، وسموا أنفسهم بالنظام الجديد. تتمثل غايتهم بإعادة بناء العالم وفق مفاهيمهم، حيث يكون فيها الناجون عبيداً يعملون تحت إمرتهم. وهم بفعلتهم هذه يظنون أن الجميع سيكونون ممتنين لهم، وأن عليهم تقديم المساعدة للنظام الجديد، وإلا يكون القتل مصيرهم.

هاي هاربور: شق الناجون من دمار العالم الغربي طريقهم إلى واحدة من الجزر الباقية بعد التغيير، وأسسوا ما يُسمى بـ«هاي هاربور»، وهو كناية عن ميناء مرتفع، حيث يعيشون بسلام حياة صعبة تفتقر إلى العديد من وسائل الراحة التكنولوجية.

الحبكة

تتنقل أحداث الرواية بين عالَمَي كونان ولانا عقب انتهاء الحرب المُدَمِرة. كان كونان يعيش وحيداً في جزيرة نائية، ولانا تعيش في «هاي هاربور» مع خالتها مزال وعمها الطبيب «شان» زوج «مزال». بعد مرور خمس سنوات على النجاة، يعثر طاقم سفينة النظام الجديد على الجزيرة التي يقيم فيها كونان، وقد ناهز السابعة عشرة حينها، فيسوقونه أسيراً إلى مدينة «إندستريا» للعمل فيها وخدمة المسؤولين عنها. يلتقي هناك بـ«تيتشر» المتخفي بشخصية باتش، الرجل العجوز الذي يصنع القوارب في «إندستريا»، ويجيد التواصل عن بُعد مع ابنته «مزال». وقد تعمّد «تيتشر» إخفاء اسمه الحقيقي، «برياك روا»، ذلك أن قادة النظام الجديد في بحث مستمر عنه، بغية أَسْرِه والحصول على ما لديه من معارف لإعادة ابتكار التكنولوجيا التي كان العالم القديم يمتلكها.

تَبوءُ خطة هروب «تيتشر» وكونان بالفشل في بداية الأمر. وبينما كانا يسرقان من مستودع التخزين معدات النجاة، يدرك «تيتشر» أن «إندستريا» ستغرق في البحر، ويقرر حينها أن إخبار مُفَوَضي النظام الجديد بالأمر هو ما ينبغي عليه فعله. فيخاطر بحياته، بعد أن جعل كونان يهرب بمفرده، ويكشف للنظام الذي وضعه في الأَسر، أنه «برياك روا» الذي طالما كانوا يبحثون عنه، وأن مدينتهم في خطر حقيقي. يعود كونان لإنقاذ «تيتشر»، ويتمكنا معاً من الهرب والإبحار إلى «هاي هاربور» فيما بعد.

هناك تكون لانا بانتظار مجيئهما. ومع أنها كانت مُوقنة أن عقبات كثيرة ستعترضهما، فإنّ ظنها لم يخب لحظة واحدة أنها ستلتقي بهما مجدداً. كان صديقها «تيكي»، طائر الخرشنة، يؤكد لها ظنونها في كل مرة. فقد عثر لها على كونان في الجزيرة النائية، وأرشده وسط الضباب إلى طريق «هاي هاربور». وفي خضم المصاعب اليومية التي كانت تواجهها مع خالتها «مزال» وعمها «شان»، للحد من محاولات «دايس» مفوض النظام الجديد للسيطرة على «هاي هاربور»، كانت تفكر دائماً بما سيكون عليه لقاؤها بـ«كونان».

المترجمة

المد الهائل

جرت أحداث هذه القصة في زمن متقدم علينا بعض الشيء، وذلك بعد أن تسببت الأمم المتحاربة بطوفان هائل في عالم الطبيعة، وسحقت أمواج المياه الهائجة لفيضان هائل معظم الحضارات.

بدأ العالم عند كونان عندما كان في الثانية عشرة من عمره. ثم عندما اكتسح مدّ هائل الأرض، نُفي إلى جزيرة نائية صغيرة. لم يكن لديه من الأصدقاء سوى طيور البحر. عاش وحيداً في براري الماء والضباب، ينتزع، بطريقة ما، الحياة من البحر ومن الصخر. تمكن من العيش لخمس سنوات. وذات مرة سمع صوتاً...

عندما ظهر عند شاطئ كونان قارب إنقاذ رمادي ينذر بالشؤم، عَرف أن بعضاً من البشر على قيد الحياة. وأن أهله ما يزالون في «هاي هاربور». وهناك في «إندستريا»، مدينة جرف متهاوٍ من عبيد خائفين، كان الفاشيون يحاولون ضم الناجين جميعاً تحت راية «النظام الجديد».

إلى شعب مجهول

من أرض ضائعة منذ زمن بعيد

من المؤكد أن ما كُتِب هنا قد حدث في السابق

سواء أكان ذلك نبوءة أم انعكاساً، فإن ذلك يتوقف علينا وحدنا.

1- الناجي

استفاق كونان عند الفجر، على صراخ أصدقائه الوحيدين، طيور البحر، وما أَلقَتْه من حجارة على كوخه. اندفع بحماس إلى الخارج، مسرعاً نحو الشاطئ الضيق. من المؤكد أن مجموعة من الأسماك قد علقت في واحد من أفخاخ المد والجزر. لطالما كانت تناديه الطيور عندما تعلق الأسماك بالمصيدة. بيد أن الفخ الذي رآه للتو كان فارغاً. كانت النوارس وطيور الخرشنة تحوم حول كونان مسببة ضجيجاً عالياً.

ما الذي كانت تحاول أن تخبره إياه؟

استدار ثم صعد الدرجات المؤدية إلى أعلى نقطة من جزيرته الصخرية. قفز فوق المنصة الحجرية التي بناها منذ مدة طويلة. نظر نظرة سريعة موحية له بفراغ بددته جزيرتان صغيرتان متراميتان على جانبين منفصلين. كانتا تَحُدان عالمه. خلفهما، وفي الفضاء المحيط بالبحر المسكون بالضباب، يصبح كل شيء غير مرئي، بما فيه الأفق.

- ما الذي تراه يا «تيكي»؟ سأل كونان، فيما كان الخرشنة النحيل يحلق على مسافة قريبة منه، مُصدِراً تغريدات سريعة وقصيرة، كأنه يحاول التحدث إليه. أين هو؟ أرني!

لامس الخرشنة بجناحه خد كونان، وحلق عالياً، متجهاً إلى الشرق من الجزيرة الصغيرة. لحقت به مجموعة من الطيور الأخرى. كان كونان يراقبها إلى أن اختفت كلياً في أسراب الضباب. من المؤكد أن ثمة أمراً ما هناك. حوت؟ لا، على الأغلب أنها مجموعة من الحيتان. إذ إنه ما من

سبب يمكن أن يتسبب بكل هذه الجلبة بين أصدقائه. لم يسبق أن حدث شيء في الوجود على قدر كافٍ من الأهمية والغرابة.

أم أن هنالك أمراً كهذا يا ترى؟

هز كونان رأسه ذا الشعر المُصْفَر هزة صغيرة، ثم جلس على المنصة، محتضناً ركبتيه بتعاسة مفاجئة. إن أراد المرء أن يستنتج حكماً بناء على ما توفره الأدلة، فإنه لم يبق سوى الماء على سطح هذا الكوكب. وأما بالنسبة إلى البشر، فإن نجا كثيرون منهم بعد الأحداث التي وقعت، فمن المرجح أن معظمهم منسيون مثله. في السنوات التي تحطمت فيها طائرة مروحية «الهيلوكوبتر» فوق هذا المد الهائل، متفككة إلى أجزاء، قاذفة إياه وحده إلى جوف الظلام، فهو منذ ذلك الحين، لم تلمح عينه بحراً ولا طائرة، ولم تسمع أذنه ضجيجهما، ولم يلحظ كثيراً مسار الأبخرة المتصاعدة أو بصيصاً من الضوء. أكان هو الآدمي الوحيد الباقي؟ بالتأكيد لم يكن هو لوحده. كان يملك دليلاً على أن لانا كانت ما تزال بخير.

عاد بذاكرته إلى عيد ميلاده الثاني عشر، وهي ذكرى لا يستطيع نسيانها على الإطلاق، لأنه في ذلك اليوم، زحف إلى الشاطئ هنا. وقبل ذلك -لكن من الأفضل ألا نعود بالأحداث إلى الوراء. كان كونان من مدينة أورم، لكن أورم ليست موجودة بعد الآن، وليس ثمة من أثر يُذكر للعالم الغربي. بدأ الزمن عندما كان في الثانية عشرة من عمره. عندما كان يرتجف من البرد، وجسمه مغطى بالجروح، وبالكاد يعي ما كان يجري حوله، إذ تمكن من الخروج من البحر. حينها كان كونان فقط. كونان، المخلوق التائه العاري الوحيد في المكان.

استعاد بذاكرته ما شعر به من برد رهيب وجوع، وكم ازداد الأمر سوءاً بينما كان متكوراً بين الصخور، يُحَدث نفسه عما يجب فعله. ولم يكن باستطاعته فعل أي شيء، فلا وجود لشيء هنا. لا شيء. ولا حتى طيور البحر.

كيف يمكن لأحد أن يصمد حياً فوق كومة صخرية جرداء من دون طعام أو ماء أو لباس أو وقود أو حتى سكين. لا يمكن ذلك. بالنسبة إلى صبي كان يعيش في عالم من الأزرار الكهربائية، حيث كانت الآلات تقوم بكل شيء، كان وضعه ميئوساً منه تماماً. كان يعرف أن الموت سيكون من نصيبه. وكاد يموت لولا الصوت الذي تحدث إليه.

- قال الصوت: كونان، هل أنت أعمى؟

- أجاب كونان قبل أن تُجَمّد الدهشة لسانه: لا.

- ثم أمره الصوت: قف على قدميك يا كونان؟ انظر من حولك. استخدم ما أُعطِيت من ذكاء. عليك أن تنضج وتتعلم، الآخرون سيحتاجون إلى مساعدتك في وقت الشدة.

لم يستطع كونان أن يعرف فيما إذا كان الصوت قادماً من مكان قريب منه، أم أنه كان يصدر من عقله. لكنه كان صوتاً حقيقياً بشكل مدهش، جعله يفكر فجأة بِجَدّ لانا، الذي فاجأه ذات مرة بحكمته القائلة: إن أحداً لديه أذنان ليسمع، بإمكانه دائماً أن ينصت للنصيحة التي يحتاج إليها.

وقف على قدميه متأرجحاً، وبدأ يتطلع حوله.

كانت الجزيرة حديثة الولادة. ربما كانت أعلى نقطة في سلسلة من التلال الصخرية، وقد أغرقتها الكارثة التي غيرت وجه العالم. أو ربما كانت نتوءاً مستحدثاً في القشرة الأرضية. لم يستدل على الحقيقة. ما من نباتات تنمو فوقها. لا شيء. وكانت المياه الضحلة المحيطة بها حديثة العهد بالنسبة إلى المحار أو أي كائن من كائنات الحياة البحرية. لكن عندما ارتفع المد، ثم تراجع، وجد شريطاً طويلاً من الأعشاب البحرية، كان قد انجرف إلى هنا من مسافة بعيدة. وفي بركة المد والجزر وجد سمكة تقطعت بها السبل.

فكر كونان مجدداً بالمذاق الرائع لتلك السمكة النيئة الطازجة. في ذلك الوقت، لم يكن لديه أدنى فكرة عن مدى سهولة صنع أدوات

التقطيع بمجرد تحطيم الصخور. فمزق بأسنانه ويديه العاريتين السمكة متلذذاً بكل قطعة منها. كان العصير أيضاً طيب المذاق، خفف من عطشه لبعض من الوقت. كان طعم الأعشاب البحرية غير مُرضٍ، على الرغم من أنه سرعان ما تعلم التلذذ بها. وفي وقت لاحق، ظهرت أنواع أخرى أفضل، فزرع جذورها في أرجاء الجزيرة. تذكّرَ أن الحياة هنا كانت تحدياً. ما بدا أنه في عداد المستحيل، أصبح ممكناً الآن، فقط لو أنه يوظف كل طاقاته، وما يتمتع به من فطنة، في سبيل مواجهة ما يعترضه من مشكلات.

نظر كونان في الاتجاه الذي طار فيه «تيكي»، وقرر أنها الحيتان. كان متأكداً أن ما رأته الطيور كان مجموعة من الحيتان. كانت بعض الطيور في طريق عودتها. تنهَّد ووقف مستوياً، فاركاً يديه القاسيتين بجسده الهزيل الصلب، وفكر فيما فعلته به السنوات الخمس وبالجزيرة الصغيرة. بعض من مشكلاته السابقة، حوض الماء وأول كوخ صغير، تطلبا منه جهداً هائلاً. ومع ذلك، بدت هذه الجهود وكأنها لا شيء الآن. وبينما كان ينضج -ومن المفترض أنه نضج كثيراً- كان قد أُجبِر على بذل جهد أكبر من أجل إعادة بناء الجزيرة وإنقاذها من البحر الساحق.

خمس سنوات انقضت، والصوت الذي حدثه في تلك المرة، بقي صامتاً منذ ذلك الحين. مرت لحظات كان يشك فيها أنه قد سمع الصوت حقاً. ومع أن الصوت لم يُحدّثه من جديد، فإن حدثاً فضولياً للغاية قد وقع. أسابيع مرت بعد الانتهاء من بناء الكوخ الأول. ومع أنه تعلم استخدام المثقاب وإشعال النار، فإنه أصبح أكثر صلابة، ونادراً ما يحتاج إلى الدفء. كانت النار والأخشاب الطافية نادرة جداً، وكان يقنن إشعالها لينير الليالي الظلماء التي كانت تصعب مواجهتها. وظلت بشاعة الشعور بالوحدة، المشكلة الوحيدة التي عجز عن إيجاد حل لها. كان وحيداً بالمطلق، ويعلم أنه ما من أحد، في أي مكان في هذا العالم، كان يهتم لوجوده. ولا حتى لانا التي اشتاق لها أكثر من أي شيء آخر في الوجود.

كان الوضع أشد سوءاً في تلك الليلة. دفعته ريح هوجاء إلى العودة إلى الكوخ مبكراً، مذعوراً من فكرة أن عاصفة في الطريق إليه. وفيما كان يجاهد لكي يشعل النار، انتعشت في مخيلته صورة لانا والطيور. كانت فتاة ناعمة القوام، أشبه بالطير، تميزها خصال لا تتوفر في غيرها من الفتيات، نوع من الحكمة ربما، أو إدراك يفوق قدرة الكلام على الوصف. كانت الحيوانات البرية تعرف ذلك، الطيور على وجه الخصوص. وعلى شاطئ مدينتها، كانت تلك الطيور تستجيب أسراباً لندائها، وكانت تُعلّم بعضاً منها أشياء مذهلة.

في تلك الليلة، هبت العاصفة هبوباً مرعباً. جعلته يستعيد ذكريات أراد أن ينساها، أنه لن يتسنى له أن يرى لانا مجدداً. وبينما كان جاثياً أمام النار المتقدة مرتجفاً، يحاول أن يبعد عنه كل الأفكار، اجتاحته كآبة رهيبة. في تلك اللحظة، دمر بحر وحشي الجزيرة، ولم يستطع من شدة يأسه أن يصرخ، فاستنجد بالصوت أن يحدّثه مرة أخرى ويمده بالمساعدة.

الصوت ظل صامتاً. ثم بغتة، مزقت عاصفة من الريح ستارة عشب البحر المنسوجة المعلقة أمام المدخل، وفي فضاء الكوخ، حلق مخلوق صغير أبيض. حطّ بالقرب منه أمام النار. إنه خرشنة البحر الطائر.

حدّق به غير مصدق ما يرى. لوهلة من الزمن، ظن أن لانا نفسها تجسدت في هيئة طائر كان يطير بحثاً عنه. وعندما اقترب الخرشنة منه أكثر، ثم رمقه بنظرة، مغرداً بصوت عالٍ وكأن الخرشنة يعرفه مسبقاً، أمسك به كونان فجأة وحضنه بين يديه وبكى.

- «تيكي»! هذا أنت يا «تيكي»! هل أرسلتك لانا؟

لم يكن يعلم كيف استطاع أن يميز طائر لانا المفضل. في الماضي كان نادراً ما يستطيع أن يميز بين خرشنة وآخر. حتى قبل أن يعاين الرباط الحريري الملفوف حول ساق الخرشنة، المصنوع من شعرة واحدة شاحبة، مأخوذة من رأس معروف، كان بكل تأكيد موقناً أن الطائر هو

«تيكي»، وأن لانا هي التي بعثت به إليه. أليست هي التي كانت تعرف دائماً كيف كانت الأوضاع عنده، ومتى كان يحتاج إلى المساعدة؟

كاد يسمعها وهي تقول:

- اذهب يا «تيكي»، وابحث عن كونان. أعرف أنه على قيد الحياة في مكان ما، وأنه وحيد في مكانه. إنه بحاجة إليك. اعثر عليه وابق إلى جانبه.

بعد تلك الليلة، بدأت طيور أخرى، معظمها من النوارس، تصل إلى الجزيرة. وكان كونان قد تعلّم تدريجياً أن ينادي كل طير باسمه، وأن يتخذه صديقاً له. لكن «تيكي» كان المعجزة التي غيّرت كل شيء. فمجرد أنه يعرف أن لانا حية ترزق في مكان ما، وأنها تفكر به، كان ذلك سبباً كافياً بحد ذاته. لكن ذلك كان يعني أن لانا قد وصلت، هي ومن كان برفقتها، إلى البحر الآمن الذي اختاره جدها «تيتشر» منذ زمن بعيد. أما بالنسبة إلى ما كان يدور في خلده -وكان في ذلك الوقت، يُؤْمِن بذلك إيماناً راسخاً- كان عليه فقط أن يلزم المكان بضعة أشهر، ومن المؤكد أن طائرة البحث ستأتي للعثور عليه.

بعد مضي أشهر، بدأ الغم يسيطر على أفكاره. وبعد مرور ثلاثين شهراً تقريباً، وقد كان يعدّ الأيام بعقدة ربطها إلى حبل، بدأ يدرك أن على الناس أن يبدؤوا من جديد، من دون أي شيء تقريباً. من دون كهرباء تصبح الآلات غير نافعة. ومن دون اللوازم والأدوات الخاصة، لا يمكن ابتكار الجديد منها. وبالنسبة إلى الطائرة، كيف يمكن لها أن تُحَلِق من دون وقود؟ أين يمكن للمرء أن يعثر على الوقود؟ ومع ذلك، إن أراد شخص مثل «تيتشر» أن يثبت لك...

لكن لنفترض أن «تيتشر» لم ينجُ بحياته؟ فالرجل العجوز لم يكن يفكر يوماً بنفسه.

هز كونان رأسه مبعداً إلى الوراء شعره المُصْفَر المنسدل على جبهته، وتنهد ثم وقف. ألقى على الجزيرة الشرقية نظرة أخيرة، من دون أن يتمكن

من رؤية شيء في الضباب الكثيف الذي يغطيها، ثم بدأ ينزل ببطء عن الدرجات الصخرية. لفت انتباهه كومة من الأخشاب الطافية الثمينة كان قد ادخرها سابقاً، تضغط عليها بعض الصخور لتحميها من العواصف، تتكون الآن من أربعة ألواح بأحجام مختلفة، ولوح طويل معقوف، ولوح تزلج قديم مصنوع من البلاستيك -واحد من أكثر الاكتشافات المثيرة للدهشة- وستة أعمدة صغيرة.

كانت المشكلة في صنع قارب مما هو متوفر بين يديه. ليس فقط أي نوع من القوارب، بل قارب من نوع خاص جداً. ينبغي أن يكون كبيراً بما فيه الكفاية، ومتيناً بما فيه الكفاية، لدرجة تمكنه من حمله عدة أسابيع بأمان، إضافة إلى إمدادات السمك المُدخن، والمياه المعبأة في زجاجات كانت قد انجرفت إلى الشاطئ. فإن لم يكن هنالك أحد لينقذه، فقد حان الوقت لكي ينقذ نفسه.

المشكلة الوحيدة التي اعترضته، هو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن صنع القارب الخشبي. لا شيء على الإطلاق. ففي سنوات الحرب الطويلة، كان يعيش على الساحل مع أهل لانا، ولديهم ما يكفي من القوارب. كانت كلها مصنوعة من البلاستيك. في حياته كلها، لم يرَ قارباً مصنوعاً بالكامل من الخشب.

بيد أن صنع قارب خشبي لن يكون من الصعوبة بمكان. وإذا كان الإنسان البدائي قد فعلها من دون توفر أي نوع من أنواع الأدوات، فلا شك أن كونان بإمكانه ذلك أيضاً.

عادة ما يجوب كونان، كأول مهمة له في الصباح، أرجاء الجزيرة ليعاين ما قذفه له طوفان المد. لكنه الآن غاص فجأة في مشكلة القارب، لدرجة أنه نسي تناول فطوره، بينما كان جاثياً في بقعة من الرمال النظيفة، حيث بدأ يرسم بعصا مدببة ما يخطط له من أفكار. لم يلحظ عودة «تيكي» إلى أن سمع ضوضاء الخرشنة فوق رأسه. نظر إليه مقطباً حاجبيه.

- هيه، ما خطبك الآن؟

انتفض «تيكي» مُحلقاً حوله على عجل، منذراً إياه ببضع زعقات. بدأت النوارس تصرخ وتدور في الهواء مرة أخرى. استقام كونان في وقفته، ثم صعد الدرجات وصولاً إلى المنصة.

بدت السماء منكشفة الآن، وكانت خطوط مشعة من اللون الأحمر تتلألأ في الشرق وراء الجزيرة. في هذا الركن الضبابي من العالم، كان مشهداً استثنائياً أن يرى أثراً من الشمس. كان كونان منتشياً ومفتوناً بما رآه، حتى أدرك أن ذلك لم يكن ما أراد «تيكي» أن يريه إياه.

فتشت عيناه عن اللون الرمادي المختبئ وراء الجزيرة. ثمة شيء هناك يتحرك؟

شيء ما كان يتحرك. بدا وكأنه سفينة كبيرة، دورية من خفر السواحل. للحظة، جمّدته الصدمة في مكانه. بدأ يرتجف على نحو مفاجئ، ثم نزل مسرعاً إلى الشاطئ الضيق، صارخاً، باكياً، ملوحاً على نحو بَرّي بيديه.

***

ليس عليه أن يقلق أن أحداً لم يلحظ وجوده. فالسفينة كانت تتجه ببطء نحوه، منجذبة، من دون أدنى شك، لرؤية الجدران الاستنادية التي أعطت الجزيرة مظهر الحصن. عندما كانت السفينة تبعد عن الجزيرة مسافة بضع مئات من الياردات، أسقطت المرساة متوغلة في المد. وها هو كونان يراها، للمرة الأولى، بكل وضوح. فجأة تبدد شعور الإثارة في داخله. وبعينين مُنفَرجتين، تفحص الشكل الرمادي مع الراية القرمزية التي تدلت برخاوة فوق قمة الصاري. تبين حقيقة ما يراه، ثم بدأت قشعريرة البرد تتسلل إليه. لم يسبق لأهله أن صنعوا سفينة كهذه، وأن علقوا راية كهذه. لكن العدو سبق أن فعلها.

كان ينظر إلى سفينة قديمة مهترئة لخفر السواحل، عُرِفت ذات مرة باتحاد السلام. ومع أنه أدرك ما قد يكون مخبّأً له، إلا أن كونان وقف مُطبِقاً كفّي يديه، مترقباً في يأس مفاجئ، يفكر بما ينبغي عليه فعله. لو أنه استطاع أن يخمن في الوقت المناسب ماهية ما كان يقترب منه، لربما

حاول أن يعوم سباحة في الطريق الطويلة الخطيرة نحو الجزيرة الغربية، واختبأ خلف صخرة من الصخور العديدة المترامية في المياه الضحلة المحيطة. لكن الأوان قد فات على ذلك الآن.

ذكريات بشعة استفاقت في ذاكرته. تصلب فكاه. اتحاد السلام! لقد التهم نصف الكوكب عندما كان كونان طفلاً صغيراً، وكان يهدد بالتهام النصف الآخر عندما حلت الكارثة. كان من المفترض أن المد الذي أغرق القارة، قد سحق اتحاد السلام من الوجود. لكن من الواضح أن ثمة ناجين. واحد على الأقل على متن سفينة خفر السواحل القديمة.

ما الذي تفعله السفينة هنا؟ ترسم المناطق الباقية من الأرض؟ ارتجفتْ يدا كونان بينما كان يراقب أشكالاً رمادية اللون مرتدية سترات تقليدية تترجل من السفينة متجهة نحوه. للحظة انتعشت مجدداً في ذاكرته صورة الناس الذين كانوا يهتمون لأمره ذات مرة –والداه وأخته الصغيرة وجداه وأهل لانا وأصدقاؤه المفضلون في المدرسة– وهم كلهم دمرهم سلاح اتحاد السلام بلمح البصر. انكمشتْ قبضَتا يديه. ثم رفعهما فجأة وبدأ يصرخ مُعبّراً عن كرهه.

بَيْدَ أن ما من صوت قد خرج من بين شفتيه.

– تحدث الصوت الذي لم يسمعه منذ زمن بعيد قائلاً: كونان.

استدار حوله، وظل يحدق غير مصدق من دون أن يرى شيئاً، وبالكاد تمكن من نطق ما يريد قوله:

– ما الأمر؟

جاءه الصوت آمراً:

– هدئ من روعك يا كونان. حان الوقت لكي تغادر. أمامك مهمة تنجزها.

عندما لامست السفينة الشاطئ، كان كونان يقف متسمراً من دون حراك، مكتوف اليدين، يتظاهر بالهدوء. وحدهما عيناه الرماديتان الضيقتان كانتا تظهران العاصفة التي في داخله.

قفز إلى الشاطئ ثلاثة رجال وامرأة، يرتدون بنطالات فضفاضة وسترات غير منمقة. كانت المرأة الهزيلة ذات الشعر الرمادي والملامح الصارمة تحمل بيدها ما بدا أنه مجموعة أدوات طبية. كانت تتحدث إلى الرجال وهي تنزل من السفينة.

- صَرَخَتْ متعجبة: انظروا إليه. لا أستطيع أن أصدق. صحته مثالية. يا فتى، منذ متى وأنت هنا؟ أتفهم ما أقول؟

أدرك كونان حينها أنها طبيبة السفينة، وأن الرجل الملتحي الذي بجانبها هو واحد من الضباط.

- أنا.. أنا أفهم ما تقولين، أجاب كونان بتردد. لقد تعلمت لغتكِ في المدرسة. وأنا هنا منذ ذلك... منذ أن ارتفع مستوى المياه.

- أنت غربي إذن؟ وأنت هنا منذ التغيير؟ وحدك تماماً؟

- لست وحدي؟ لدي أصدقاء.

- أصدقاء؟ تكلم الرجل ذو اللحية الأكثر كثافة بين الرجال الثلاثة مستهزئاً. أي أصدقاء؟ أين هم؟

- انظر فوق رأسك، إنها الطيور. أخبره كونان.

حدّق الجميع بغضب في أسراب الطيور البحرية المحلقة فوقهم.

- تمتمت المرأة: مخلوقات مزعجة، ما خطبها؟

- إنها لا تحبكم. تعرف كيف أشعر نحوكم.

- قال الرجل متذمراً: ماذا؟ ماذا تقصد؟ ألست ممتناً أننا سننقذك؟

- وهل ينبغي عليّ أن أكون ممتناً؟

- الوقت ليس مناسباً لكي تظهر كل هذه الغطرسة. أين امتنانك؟ هذا إن كنت تتمنى أن تصبح مواطناً في «النظام الجديد»...

- «النظام الجديد»؟ قال كونان مقاطعاً: أهذا اسم بديل عن اتحاد السلام؟

- بالتأكيد لا. جميع الناجين من التغيير يعاد تنظيمهم تحت رايتنا.

علينا أن نعيد بناء العالم. سيتطلب ذلك انضمام كل شخص يمتلك القدرة على فعل ذلك.

صمت الرجل ذو اللحية الكثيفة محدقاً بفضول بالجزيرة. تكلم إلى كونان بعصبية: أريد الحقيقة الآن. أنت لست هنا منذ حادثة التغيير، ولم تكن وحدك. هذا مستحيل.

- لماذا تقول إن ذلك مستحيل؟

- لأنه مستحيل. أجابت المرأة بحسم. لأنه لا يوجد شيء هنا سوى كومة صخرية. وأنت بصحة جيدة للغاية. كأنك «برياك روا» بشحمه ولحمه.

- هدوء أيتها المواطنة الطبيبة، أريد أن أسأله سؤالاً. تحدث الرجل آمراً.

- حاضر أيها المواطن الكابتن. لكن من الواضح أن ثمة أمراً خاطئاً هنا.

- أومأ الكابتن برأسه: سأحصل على الحقيقة. الأمر المتعلق بالرجل «برياك روا». أتعرف «برياك روا» أيها الفتى؟

- أنا... أعرف من يكون. أجاب كونان متلعثماً. بالطبع، الجميع يعرفونه. لماذا تسأل؟

كان مندهشاً من رؤية أربعة أزواج من العيون تحدق به باهتمام.

- قال الكابتن: ثمة إشاعة تقول إن «برياك روا» على قيد الحياة. ولدينا أوامر أن نعثر عليه.

- لكني لا أفهم، إنه غربي. ما الذي...

- لا يهم من هو أو ما يكون عليه. «النظام الجديد» يحتاج إليه. إنه ليس في مخيم اللاجئين حيث يقيم أهله. لذا، إن لم يكن مختبئاً، هذا يعني أنه مشرد مثلك. من الممكن أن يكون في أي مكان، حتى هنا.

- إذن، لماذا لا تبحثون عنه؟ قال كونان ببرود.

كان القبطان يندفع إلى الأمام، عيناه تتفحصان طبقات الجدران ومجموعة الأكـواخ خلف الدرع الواقي من الأحجار. بينما توزع الآخرون مُنهَمِكِين في البحث. وبعد بضع دقائق أعادوا الكرّة من حيث بدأوا، وفتشوا كل إنش في الجزيرة. كانت قطع السمك المدخن في مخزن الكوخ الشيء الوحيد الذي حظي باهتمام حقيقي منهم. كان القبطان والطبيبة يلتهمانها بنهم.

– آه، طعمها لذيذ! تمتمت الطبيبة. لذيذ جداً. إنها أول قطعة سمك أتناولها منذ... منذ... كان ذلك قبل حادثة التغيير بزمن طويل.

– ذكّرها كونان بهذه المعلومة: البحر يعج بالسمك. ألا يسمح لكم «النظام الجديد» بتناول السمك؟

– لدينا سمك، قال القبطان بتذمر. كثير من الأسماك! نقوم بتجفيفها، ونُعِدّ منها وجبة طعام بطريقة جديدة ورائعة...

– لكننا لا نجعلها سمكاً مدخناً. قالت الطبيبة بقليل من الحزن.

– بالطبع لا، إعداد السمك المدخن يتطلب هدراً للأخشاب. إن «النظام الجديد» لا يهدر المواد القيّمة.

ثم مرر القبطان قطعة صغيرة نظيفة من العمود الفقري بين أسنانه، قذفها بعيداً، ولعق شفتيه. بعد ذلك نظر إلى كونان.

– ما زلت تصر على أنك هنا وحدك تماماً منذ أن وقع التغيير؟

– أخبرتك أنه لدي أصدقاء.

– كلام فارغ! أنت تخفي أمراً ما. ما هو؟

– لا أعرف ما الذي تتحدث عنه؟

كشّر القبطان غضباً ونظر إلى المرأة: ماذا تقولين أيتها المواطنة الطبيبة؟ أنتِ رأيتِ المشردين الذين عثرنا عليهم في رحلتنا الأخيرة. كانت لديهم جزيرة كبيرة، ولم يكونوا جديرين أن ننقذهم.

– ألم.. ألم تنقذوهم؟ سأل كونان.

- لماذا؟ تكلمت الطبيبة باستهزاء. كانوا سيصبحون عبئاً علينا. لم يستطع «النظام الجديد» استغلالهم. لكن أنت...

توقفتْ عن الكلام، ثم تابعتْ بصوت حاد مفاجئ...

- نجده أمراً غريباً للغاية أنك تمكنتَ من العيش في مكان يموت فيه الآخرون أو يصابون بالجنون. كيف فعلتَ ذلك؟

- أجاب كونان بنبرة غير مبالية: تلقيت بعض المساعدة بالتأكيد. ربما كان لدي ملاك حارس. لم أره قط، لكنني متأكد أنني سمعت صوته...

- أوه، هذه حماقة! قاطعته المرأة بعصبية. بعد قليل ستخبرنا أنّ ثمة إلهاً هنا.

اكفهر وجهها ثم تابعت...

- من المحتمل أنه نظامك الغذائي. ما الذي كنت تأكله إضافة إلى السمك؟ كنت تأكل الطيور؟

- أتأكلين أصدقاءك؟ رد كونان على إهانتها.

تذمر الكابتن: خذاه إلى المركب، ولنكمل الاستجواب هناك. لقد أضعنا ما يكفي من الوقت.

بدأ كونان يتراجع إلى الوراء، لكن الرجُلَين اليافعين حاصراه. أبعدهما بغضب موقعاً كليهما باستعراض من القوة لم يكن يحلم أنه يملكها. ثم قال:

- سأذهب معكما، لكن ليس قبل أن أودع أصدقائي.

استدار إلى الخلف وصعد إلى المنصة. أحاطت به الطيور مشكلة حلقة دائرية حوله. رفع يديه نحوها وتحدث معها بصوت مرتجف.

- يجب... يجب أن أغادر. ربما سأراكم مجدداً في يوم من الأيام. سأراكم جميعاً مرة ثانية. «تيكي»...

فجأة، انتزع من رأسه شعرة صفراء مجعدة، ثم لفها وربطها بساق «تيكي».

- اذهب، اذهب إلى لانا. قالها باندفاع.

عندما فهم الطير أخيراً، ارتفع في الهواء، وحلق بشكل دائري مرة واحدة، ثم اتجه إلى الغرب فوق البحر. راقبَ كونان طيره وهو يطير، ثم نزل مغموماً لمواجهة آسريه.



2- السر

في المطبخ المعتم في كوخ جدها في «هاي هاربور»، حيث كان كثير من الأناس اليافعين قد نُقِلوا قبل التغيير، أجرت لانا فحصاً مستوفياً للوجبة التي طحنتها، ثم عرضتها على خالتها.

- ينبغي أن تكون الكمية كافية لتطعم الجميع. ألا تعتقدين ذلك؟

- شمت «مزال» الوجبة ثم قالت: أكثر مما يكفي. لو أنني أعدها بطريقتي...

- من المحتمل أنك كنتِ ستدسين السم لذلك الصعلوك. قالت لانا وهي تبتسم على الرغم مما كانت تشعر به.

- هل تلومينني على ذلك؟ ذلك الضفدع ذو الوجهين! تزعجني فكرة أننا سنجلس معه إلى الطاولة، وهو يعلم أننا نعرف، وأننا نتظاهر بتصديق أكاذيبه. بصراحة، لماذا دعاه «شان» لتناول العشاء؟

- لكنه كان مضطراً لذلك يا «مزال». أنت تعرفين ذلك.

- أعتقد ذلك. بما أننا أُجبرنا على المقايضة مع «النظام الجديد»، علينا أن نصطنع الود معهم. لكن الأمر كله يزعجني. أقصد لو أن «شان» كان يعرف الحقيقية...

- لكنه لا يعرفها، ولا يمكننا أن نخبره بذلك.

- لا أعرف. أعتقد أنه علينا أن نخبره.

- لكن «تيتشر» قال ألا نخبره شيئاً.

- أجل، كان ذلك قبل مجيء السفينة التجارية. نظرت «مزال»، مكفهرة، إلى حبات البازلاء التي التقطتها وبدأت تقذفها بغضب. مجرد التفكير أن علينا أن نطعم ذلك المخلوق، ما اسمه؟

- «دايس»، المفوض «دايس». أحس بما تشعرين به. إنه.. إنه متطلب للغاية. يظن المرء من طريقة تصرفه أنه يمتلكنا.

- وسيتحقق له ذلك، في حال سمح له هؤلاء المجانين هنا. أجابت «مزال». كما أن الأمر يخيفني. لذلك ينبغي أن يعرف «شان» الحقيقة. لا تنسي أن «تيتشر» عيّنه مسؤولاً هنا. وبما أنه الطبيب الوحيد هنا، ليس عليه أن يشعر بالقلق حيال ذلك. إنه يهرع لمساعدة الجميع. لو أنه بإمكاننا أن نفكر بشخص آخر.

- ليس هنالك أحد آخر. قالت لانا بهدوء.

- لا، لا أعتقد ذلك. لا يوجد أحد ناضج في السن وذكي بما فيه الكفاية يمكننا الوثوق به. الوضع سيئ. أتمنى لو أنني أعرف ما ينبغي فعله.

حدقتا ببعضهما بيأس. الفتاة النحيلة الشاحبة ذات العينين المظلمتين المذهلتين. والخالة، المرأة اليافعة ذات الشعر الأحمر. بعد خمس سنوات من المشقة، لم يعد الاختلاف في فارق السن بينهما أمراً له أهمية. وكان الاهتمام بينهما يفوق ما يجمع بين الشقيقات.

وفيما كانت تفكر بجدها «تيتشر»، عضت لانا إحدى شفتيها، وحدقت بالميناء الرمادي، حيث وصلت أول سفينة مقايضة لدورية «النظام الجديد» اليوم. كانت تعلم أن في حمولتها كثيراً من الأغراض التي يحتاج إليها الناس بشدة. وأشياء أخرى لا حاجة لهم بها، لكن من المحتمل أن تصبح كذلك لو أنه يُفسح لها المجال.

- سيحين الوقت للذهاب إلى البرج. عندما تتحدثين إلى «تيتشر»، لم لا تأخذين بنصيحته بشأن إخبار «شان»؟

- إنني... أكره ذلك، أجابت الخالة بحزن. لقد حذرني مرات عديدة ألا أخبر «شان». يمكنني أن أفهم السبب. «شان» شخص صادق، ويظل شارد الذهن. وبكل سهولة يمكن أن يزل لسانه بأي كلمة من دون أن يدرك ذلك.

- إذن من الأفضل أن نحتفظ بالأمر فيما بيننا.

- أعتقد ذلك. أين «تيتشر»؟ كما أنه لا يمكننا فعل شيء حيال الأمر. ينبغي أن نستمر بإخبار القصة التي أخبرنا إياها، وأن نصلي ألا يعرف أحد الحقيقة. لأنه إن حدث ذلك بالفعل...

إن عرف الجميع الحقيقة، ستتلاشى «هاي هاربور» إلى أجزاء صغيرة بلمح البصر. هذا ما فكرت فيه لانا. ثم سنصبح تحت رحمة «النظام الجديد»، وسنتحول جميعنا إلى عبيد. «شان» لن يتمكن من إنقاذنا أبداً.

لقد تَذَكَرَتْ أن الحياة هنا، في بادئ الأمر، لم تكن على نحو كبير من السوء. كانت صعبة، هذا أمر مؤكد، لكن هذا ما كان يتوقعه الجميع، أن تكون قاسية، وتناغموا جميعاً فيما بينهم، وجعلوا منها ألعوبة. «مزال» و«شان» لم يتزوجا منذ وقت بعيد. وكانا مثلاً أعلى في نظر الفتيات والفتيان، وكان الجميع يعتقد أن «شان» طبيب رائع. لكن السنوات الخمس قد أحدثت تغييراً مريعاً. لم يتبق إلا بعض البالغين للاهتمام بالأمور. ومئات الأطفال من البنات والصبيان الذين أُحضِروا إلى هنا للحصول على الأمان قد كبروا الآن. بلغ معظمهم سن المراهقة، وبعضهم الآخر لم يكن أفضل حالاً من المخلوقات البرية.

لانا سمعت «مزال» تسأل، هل حان الوقت؟ ثم نظرت إلى الشفق الذي بزغ باكراً، وقدّرت التوقيت بسرعة. كانت هنالك بضع ساعات في «هاي هاربور»، وكانت ما تزال تعمل، لكن لانا تعلمت بالممارسة أن تخمّن الوقت في غضون دقائق قليلة.

أجابت لانا:

- لا، لم يحن الوقت بعد، لكن أعتقد أن عليك أن تذهبي، وأن تستعدي.

- لكن العشاء يا عزيزتي...

- أوه، سأهتم أنا بذلك. ما يهم الآن هو رسالة «تيتشر». عليكِ أن تحضريها هذه المرة.

- معكِ حق. أرخت «مزال» الغاضبة عباءة فوق كتفيها واتجهت نحو باب الحديقة. ثم استدارت وقالت: صلّ من أجلي. فتحتِ الباب ودلفت إلى الخارج.

نظرت لانا من النافذة، بيدين مشبوكَتَين بإحكام، إلى خطوات «مزال» المتسارعة على طول الجدار الحجري المواجه للحديقة. تبعتها بنظراتها إلى أن دخلت البرج القديم عند الركن البعيد. لم تتمكن من رؤية المكان الذي ظهرت فيه «مزال» بعد أن صعدت السلالم المتعرجة وصولاً إلى الطابق العلوي للبرج، لكنها تمكنت من أن تحيك في مخيلتها كيف وقفت خالتها، بعينين مغلقتين، تحت سقف من القش، تواجه البحر. وفي مكان ما، على مبعدة مئات الأميال المجهولة، كان «تيتشر» والد «مزال» يقف في الاتجاه نفسه، مصرّا على أن يبلّغ ابنته الرسالة.

لم تكن «مزال» تجيد ذلك على الإطلاق، كما أنها لم تتمكن من الحصول على أي معلومة من الرسالة إلا بعد ممارسة هذه الخطوات بشكل يومي، في نفس المكان، ونفس الساعة. البارحة لم تتكلل مهمتها بالنجاح، أما اليوم...

أغمضت لانا عينيها وهمست:

- أرجوك يا الله، ساعدها لتحصل على رسالة «تيتشر»، أرجوك.

كان لابد أن يحصلوا على الرسالة هذا المساء. كان لابد من ذلك، بما أن سفينة المقايضة هنا.

عندما عادت لتكمل أشغالها، بدأت تفكر بـ«كونان» مجدداً. هذا لا

يعني أنه لم يكن يخطر ببالها، لكنها كانت، لعدة أيام، تشعر بشعور مزعج ومقلق. كان ثمة خطب ما. ولولا الأعمال التي كان عليها أن تنجزها، لذهبت إلى غرفتها وحاولت-كما حاولت ألف مرة في السابق- أن تبعث أفكارها إلى كونان، وتحصل على رد منه. كانت متأكدة أنها ستنجح في ذلك. لكن هذه الفكرة لم تعنها الآن.

وبينما كان العشاء يُخبَز في فرن الآجر فوق موقد النار، كانت تُعِد الطاولة، ثم أخذت من درج الخزانة بعضاً من الشموع. في تلك اللحظة، وفيما كانت تنظر من النافذة لكي تخمّن الوقت، رأت رجلين يعبران الطريق الحجري في الميناء. كانا «شان» والمفوض «دايس».

عندما رأت المفوض المليء بالحيوية بلحيته السوداء الكثيفة التي كانت تروح وتجيء مع كل حركة من ذقنه، تجمد شيء ما في أعماق لانا، وأعادت الشموع إلى الجارور. كانت الشموع غالية الثمن ومن الصعب صنعها. وكانت تضيئها للأصدقاء فقط. وفي حال لم يتمكن المفوض من تناول طعامه على ضوء النار، فلن يأكل هنا.

كان «شان» ذو الخطوات البطيئة والمتعبة يمشي إلى جانب المفوض. وكانت سترته المرقعة تتدلى من كتفيه النحيفتين، وقد بدا كأنه خاوي الحماس أكثر من ذي قبل. على الفور، أدركَتْ لانا الحمل الثقيل الذي كان يحمله الطبيب المسكين، وكم كان غير مُستَعِد لحَمْله. فكرتْ بينها وبين نفسها، إنه رجل طيب بالفعل، لكنه لم يُخلَق ليكون رائداً. وهذا ما نحن عليه. وفي هذا النمط من المِحن...

ظنت أن الرجلين سيدخلان إلى الكوخ، لكن ما إن دخلا من البوابة الرئيسية، حتى تحولا إلى طريق أشجار الصنوبر، وصولاً إلى مكتب «شان» الصغير. وهنا فقدت أي أثر لهما. ثم نسيتهما كلياً، وخرجت لتحضر الحطب تمهيداً لإشعال النار.

لم تعثر على الخشب. تذكرت أن أحدهم أخذ الفأس -التي لم يكن في «هاي هاربور» سوى القليل منها- ولم يتمكن «شان» من تدبر واحدة

قبل مجيء مركب المقايضة. بدأت بعد ذلك بأشجار الصنوبر. من المؤكد أنه بإمكانها أن تجد ما يكفي من الأغصان والفروع المتساقطة لإشعال النار. توقفت فجأة في الزاوية الشمالية من الكوخ. لم تتمكن من رؤية «شان» والمفوض، لكنها كانت تسمع ما يدور بينهما وهما يتحدثان بصوت منخفض. كانا يتحدثان عن «تيتشر».

تمددت على الأرض فوق حجارة الكوخ القاسية وحبست أنفاسها. كان المفوض «دايس» يقول بلهجة تشي بقليل من الغضب:

– لكن لابد أنها تعرف مكانه! وبما أنها على تواصل معه...

– إنها ليست على تواصل منتظم معه، قاطعه «شان» بصوت ضعيف ومُتعب. إنها لا تملك المقدرة الكافية. كما أن والدها علّمها ما يمكّنها من التواصل معه فقط.

– إنني أفهم كل هذا، لكنها تتواصل معه. ومن يفعل ذلك يمكنه أن يساعد في تحديد موقع الشخص المعني. لذا أكرر كلامي، إن زوجتك تعرف مكان والدها.

توقف الحديث بينهما. ثم جاء صوت «شان» سريع الانفعال.

– بالتأكيد تعرف! ألم أخبرك بذلك؟ والدها في جزيرة ما...

– جزيرة! دائماً تقول جزيرة. ألا يمكنك أن تصفها لي؟

– وهل ينبغي عليّ ذلك؟

– أعتقد أنه من الجيد أن تفعل ذلك

– ثم ببطء أجاب «شان»، صرت تهددني الآن. كنت أظن أن غايتك ودية. أن لديك مهمة مقايضة. هذا ما وَعَدَتْ به سفينة المسح عندما وصلتْ إلى هنا في وقت مبكر من السنة. أنتم لديكم كثير من الأشياء التي نحتاج إليها بشدة، ونحن لدينا ما أنتم تحتاجون إليه بشدة أكثر. لذلك عقدنا اتفاقاً فيما بيننا. لكنك تهددني بدلاً من التصرف بود.

– أوه، كفاكَ الآن! قال المفوض بصوت عميق. لو أنني أردت أن

أهددك، لتمكنت من ذلك. نحن نملك السلاح، وأنتم لا تملكون قوة دفاعية.

- عددنا يشكل قوة دفاعية كافية. وكثير من الفتيان هنا مسلحون.

- لديكم أقواس! قالها المفوض بسخرية، ثم تابع، لكنني أفضل أن أكون ودياً لأطول فترة ممكنة. لابد أن نعيد بناء العالم، وينبغي على الرجال أن يعملوا معاً من أجل تحقيق ذلك.

- تحت إمرة من؟ إمرتكم أنتم؟

- أمر طبيعي، نحن نتفوق عليكم كثيراً. لقد أنقذنا أسطولاً من السفن، وأنتم لا تملكون أياً من هذا. ولدينا مدينة كاملة من المصانع، وآلاف من المواطنين العاملين في خط الإنتاج. أيمكنك أن تقول أمراً مشابهاً لما أقول؟ ما الذي تنتجونه أنتم هنا؟ لا تنتجون شيئاً سوى التذمر، صحيح؟ كما أنكم بالكاد بدأتم بقطع الأخشاب التي أمرناكم بقطعها منذ أشهر مضت...

توقف المفوض عن الكلام. فكرت لانا في خلدها غير مصدقة ما تسمعه.

- لا تصدق ما يقوله يا «شان»! إنه يقول الأكاذيب. إنه يحاول التنمر عليك فقط.

- قال «شان» بهدوء: إنني لا أشكك بما تقول أيها المفوض، وأنت ينبغي ألا تقلل من شأننا. وفيما يتعلق بالخشب، لقد حذرتُ قبطان مركب المسح أننا لن نستطيع قطع كثير من الأخشاب ما لم تحضروا الأدوات اللازمة. أتمنى أن تكون أدوات تعمل بالطاقة.

- أدوات طاقة! تساءل الصوت العميق. بالتأكيد لا! لا نملك الوقود ولا الكهرباء هنا. أداة الطاقة الوحيدة التي يمكنك أن تستخدمها هي آلة تعمل بالطاقة الشمسية، وثمة رجل واحد على قيد الحياة يعرف حيلة صنعها.

- حقاً؟ «تيتشر» هو الرجل الوحيد الذي يعرف؟

- بالطبع! ظننت أن الجميع يعرف ذلك. كم سيكون أمراً فظيعاً ألا نتمكن من العثور على ما تسمونه هنا «تيتشر». والسبب أن ذلك قد يكلّف العالم ألف عام لاستعادة معارفه!

- أتخيل ذلك، قال «شان» مؤكداً.

- إذن أيها الطبيب الصالح، أنت مدين لنفسك ولكل ناجٍ من التغيير، ساعدنا في العثور عليه.

تنهد «شان» تنهيدة متعبة، ثم قال ببطء:

- اسمعني، لقد أدليتُ بكل ما أعرف. «تيتشر» كان من بين آخر من حاول الطيران هنا، لكنه بدأ متأخراً. الطائرة الكبيرة التي كانت معه ضاعت، ونحن لا نعرف ماذا حل بها. كما أن أجهزته تحطمت بالقرب من إحدى الجزر الحديثة الاستكشاف. كل ما عرفناه أنها جزيرة جليدية كبيرة، وبرفقته ناجون آخرون. أما القارب الذي يحاولون صنعه...

- نعم، ماذا عن القارب؟

- ندرك أنه أصبح مكتملاً تقريباً. ينبغي أن يكونوا قد وصلوا إلى هنا الآن لو أنهم استطاعوا العثور على الأدوات. وقد يستغرق الأمر عاماً كاملاً لكي تستقصي سفينة المسح خاصتكم كامل أرجاء الجُزر. إن كنتَ متلهفاً للحصول على مساعدة «تيتشر»، لم لا تنتظره وحسب؟ وإن كان الحظ سيكون حليفه، ينبغي أن يصل إلى هنا قبل أن يحط الضباب.

- صاح المفوض: أنت لا تعرف شيئاً عن الملاحة يا دكتور.

- ما الصعوبة في ذلك؟

- صعوبة؟ يا إلهي! ثمة بِحار جديدة في الخارج يا دكتور. ولا نملك مخططات بيانية لها، كما أنه لا نملك مروحية تمكننا من استكشاف البِحار من الجو. إن العثور عليك كان معجزة بحد ذاتها. توجد شعاب مرجانية نتعرف عليها الآن. والشمال ليس في وجهته المعتادة، وهناك منطقة لا

يُجدي فيها عمل البوصلة. وفي حال عَلِقَ أحدهم وسط الضباب، فإنه لن يجد طريق العودة أبداً. كما أن بعضاً من التيارات الغريبة قد تدفع السفينة إلى مكان ما في منتصف من العالم. لنفترض أن مركبك ارتطم بالقاع أو نفد وقودك؟ من أين تحصل على المساعدة اليوم؟

خيم الصمت لوهلة، ثم أكمل المفوض كلامه.

- الضباب سيحل في غضون شهرين. كما أنه لم يعد أمامنا كثير من الاحتمالات. وعلينا أن نخرج من هنا على الفور. فإن لم نتخذ الاحتياطات المناسبة، ستكون أنت سبب الخسارة. وبالنسبة إلى والد زوجتك، ينبغي أن نعثر عليه قريباً جداً. لذا، من الأفضل أن تخبرنا...

لقد ضاعت بقية الكلمات بين ضوضاء مفاجئة لسنجاب يقفز على الفروع العلوية، تبعتها صرخات الطيور البحرية المتساوية في سعادتها التي كانت تحلق فوق الكوخ. تراجعت لانا على عجل. عثر عليها أصدقاؤها.

توقفت عند باب المطبخ عندما بدأت الأجنحة تصفق مقتربة منها. همست لانا:

- ابتعدي أيتها الطيور الساذجة، ألا ترين أنه ليس عندي ما أطعمكِ إياه؟

رفرف الخرشنة بجناحيه واستقر على يدها. تنفست الصعداء عندما رأته. وعلى الفور نسيت كل شيء.

- قالت لانا بصوت متقطع الأنفاس ومرتجف: «تيكي»! لا أصدق أنك عدت! لكن ما الذي حدث؟ لماذا أنت هنا؟ بعد ذلك رأت الرباط الأصفر على ساقه، وتنفست الصعداء مجدداً. كونان أرسلك إلى هنا؟

وبينما كانت تحاول التفكير، حملت الخرشنة ليصبح على مقربة من خدها. اتسعت عيناها الداكنتان بالخوف وعدم اليقين. لماذا أرسل كونان «تيكي» إلى هنا؟ لم يكن مريضاً أو أنه تعرض للأذى، كانت متأكدة من ذلك. أيعقل أنه غادر الجزيرة؟ لكن لماذا؟

على الفور، وفي غمرة استيعابها للأمر، أدركت أن هنالك سبباً واحداً فقط يجعل كونان يرسل «تيكي» إليها. لكي يخبرها أنهم عثروا عليه، وهو الآن في عداد الأسرى. استدارت وحثت خطاها على طول جدار الحديقة وصولاً إلى البرج. يجب أن يعلم «تيتشر» بهذا الأمر فوراً.

3- الوصمة

بعد فترة وجيزة، أُحضِر كونان إلى متن سفينة المسح، وقُصّت كتلة شعره المتشابك، وأُعطي ملابس ليستر عُريَه. كانت الملابس بالية ومرقعة، مصنوعة من مادة اصطناعية رديئة، غير لطيفة على الجلد، لكنها بدت نظيفة على الأقل. ثم استجوبته الطبيبة مجدداً، واستشاطت غضباً عندما رد عليها بنفس الإجابات السابقة.

– أصوات! صرخت باشمئزاز. كلام فارغ! عندما نصل إلى الميناء، من الأفضل أن تتحدث بأدب مع المفوض. حاول أن تخبره أن الأصوات هي التي جعلتك تحافظ على صحتك وسيجعلك في حالة غير مؤهلة.

– لأي شيء ستكون غير مؤهلة؟

– ستكون غير مؤهلة للحياة يا غبي! «النظام الجديد» لا يمنح الفرص للأغبياء. فقد يحطمون أدوات غالية القيمة. ثم قالت بصوت منخفض: أكره أن أرى جسداً غضاً مثل جسدك يُرمى بعيداً. لديك عضلات جميلة للغاية! في حياتي كلها لم أرَ مثيلاً لها. تحسست ذراعيه وقالت: إنهما كالفولاذ! «النظام الجديد» يحتاج إلى قوتك. شكرها لأنها حذرته، ثم سألها، إلى أين نحن ذاهبون؟

– سنذهب إلى موطننا من أجل مزيد من الوقود. ثم نذهب مجدداً لإجراء رسم بياني لما تبقى من الأراضي الجديدة قبل حلول الضباب.

– لكن... أين الموطن؟

– في «إندستريا» بالتأكيد.

– أهي مدينة؟

– إنها مدينة «النظام الجديد». وقريباً ستصبح عاصمة العالم. قالت ذلك بكل فخر وأكملت: سنصل إلى هناك في غضون أيام قليلة. ثلاثة أيام أو أربعة ربما. هذه مياه غريبة، علينا أن نعبرها بحذر شديد.

***

رأى كونان ضباب مدينة «إندستريا»، وشَمّه، قبل أن تقترب السفينة المتجهة نحوه بوقت طويل. شيء ما عن قبحها المتمدد كان مألوفاً بالنسبة إليه. مع تزايد نفوره منها، حملق في فدان من الأنابيب والصهاريج المتشابكة، والدخان الزيتي المتشكل مع بعض المداخن، وضجيج الخزانات البلاستيكية الهائل. كانت ترتفع كلها بشكل صارخ بين البحر والتلال القاتمة. وأخيراً، عندما تراجعت السفينة خلف حماية حاجز الأمواج المؤقت، تذكر صورة كان قد نسيها منذ زمن بعيد.

قال للطبيبة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر كي تصل إلى الشاطئ:

– لماذا؟ أليست هذه واحدة من المدن الكيميائية التي كان يخطط اتحاد السلام لبنائها؟ حيث كان كل شيء من المفترض أن يكون مصنوعاً من البلاستيك أو المواد الاصطناعية، بما في ذلك الأطعمة...

– قاطعته الطبيبة بكل هدوء، هذه هي المدينة النموذجية. المدينة الوحيدة التي أُنجِزت بعد التغيير. كما أنه لا تقل عن الطعام إنه اصطناعي. إنه أفضل طعام صُنع على الإطلاق، والأكثر اعتماداً على النظريات العلمية. أنت تأكل هذا النوع من الطعام منذ إنقاذك.

– رد عليها قائلاً: أنا لم أُنقَذ. لقد أُسِرت. كما أنني لا أحبذ أن أطعم طعامكِ للكلاب.

– إنه أفضل طعام على سطح الأرض، ويُستحسن أن تستسيغه! قالت له بغضب ثم أكملت: عليك أن تساعدني، ومن الأفضل أن تنتقي ألفاظك عندما تصل إلى الشاطئ، أو ستتمنى لو أننا لم نعثر عليك إطلاقاً.

قبل أن تصطف خطوط الملاحة البحرية بسرعة، بدأ ذقنها يرتجف من الغضب، ثم تأرجح جسدها النحيل الطويل فوق سياج السفينة، وقفزت إلى الرصيف. وبينما كان كونان يتبعها، قالت له، سأسلمك إلى مفوض العمل. وهو يوكل إليك عملاً. وفي حال أظهرت قليلاً من الامتنان للفرصة التي ستُقَدَم لك ستصبح في حال أفضل.

- أي فرصة؟

- فرصة أن تصبح مواطناً في «النظام الجديد» بالتأكيد. ستبدأ كمواطن متدرب، والباقي يتوقف عليك، ما من شيء مجاني في هذا العالم. يجب أن تعمل من أجل ذلك.

كتم غضبه المفاجئ، ومشى إلى جانبها حزيناً بخطوات كبيرة. عبرا ممراً بلاستيكياً مملوءاً بما بدا أنه لوازم أبنية بلاستيكية، ثم اتجها نحو هيكل طويل قاتم مثقوب بصفوف من النوافذ الصغيرة. كانت راية «النظام الجديد» الحمراء تحلق بتحد فوق المدخل.

قبل أن يصلا إلى المكان مباشرة، هبّت نحوهما من إحدى المداخن تيارات منخفضة من أبخرة لاذعة. توقفت الطبيبة لبرهة، وأرجعت رأسها الرمادي النحيف إلى الوراء، ثم تنفست بعمق. رائحة طيبة! إنها أطيب رائحة في العالم.

- شعر كونان بالاختناق، وبصعوبة تمتم بضع كلمات، ما.. ما الذي يعجبكِ فيها؟

- قالت له بحدة: إنها رائحة الحياة والتقدم. لقد أبقتنا على قيد الحياة منذ حادثة التغيير. وفي يوم من الأيام ستساعدنا على أن نحكم العالم.

قادته إلى قاعة طويلة فارغة عبر الباب من الجهة اليسرى. دخلا مكتباً كئيباً حيث كان عدة رجال يتشاورون حول خريطة الجدار. وبعيداً عنهم في غرفة مجاورة، لمح كونان شخصاً ضخماً أحمر ذا لحية حمراء، متسمراً خلف مكتب بدا صغيراً جداً مقارنة بضخامة حجمه.

وبينما كان كونان يتساءل لماذا كل الرجال الذين رآهم ملتحين، نظر إليه الرجل ذو اللحية الحمراء، ورفع حاجبيه الكَثّين، وفجأة زأر قائلاً:

- المواطنة الطبيبة «مانسكي»! كنت أظن أن الوقت حان لعودتك! تعالي أخبريني ما الذي وجَدته.

- أجابته وهي تدخل المكتب، لم نجد الكثير أيها المواطن المفوض. عثرنا على القليل، أخشى أنك لن تهتم لأمره. يؤسفني..

- رد عليها بصيغة الأمر، توقفي عن الاعتذار، وقدمي لي الحقائق. ما الذي وجدته؟

- سبعاً وعشرين جزيرة جديدة، لا قيمة لها عملياً. سيُحضِر لك القبطان -عندما يأتي- تقريراً مفصلاً.

- ما من ناجين؟

- ناجٍ واحد. إنه شاب، لكن ينبغي أن يكون عاملاً جيداً.

- لم تحصلي على أي إشارة عن ذلك الرجل الذي نريد؟

- لا أثر له! بدأت الظنون تساورني أن تلك المجموعة في «هاي هاربور» تخفي عنا أمراً ما.

- حسناً، «دايس» هناك الآن. يجب أن يكون قادراً على انتزاع الحقيقة منهم. وفي غضون ذلك، تابعي البحث. ابحثي في «المنطقة الثالثة» هذه المرة.

- لكن في تلك المنطقة يتعطل عمل البوصلة دائماً. ذكّرَتْه مجدداً بذلك.

- سأتحدث إلى القبطان مجدداً عن هذا الأمر. ينبغي أن تبحثي هناك قبل حلول الضباب. إن عثرتِ على أرض فيها، من المحتمل أن «برياك روا» هناك. توقف المفوض عن الكلام وعبس في وجه كونان الواقف عند الباب، ثم تكلم بأسلوب فج. لا تقولي إنه الناجي الذي أحضَرْتِه معك.

- إنه هو. وأؤكد لك أنه سليم جسدياً، وقوي البنية، وذكي. لكنه متمرد. فهو لا يقدّر الفرصة التي حظي بها.

- ها! قليل من العمل سيتولى أمر تمرده. لكنه مذهل! صحته ممتازة! بعدها أمر المفوض كونان بقوله: اقترب إلى هنا أيها الشاب، ودعني أنظر إليك.

دخل كونان، الذي كان يستشيط غضباً في أعماقه، وأذعن لأسئلة المفوض. كانت تشبه الأسئلة التي وُجهت إليه من قبل، لكنها كانت أكثر حدة هذه المرة، وكان السائل المتنمر أكثر تطلباً. تصاعد غضب كونان. وحدها ذكرى الصوت الذي سمعه ذات مرة مكّنته من السيطرة على أعصابه.

- فجأة انفجر كونان قائلاً: لماذا تهددني بهذه الطريقة؟ إنني مستعد للعمل من أجل حياتي، لكن هل من سبب يمنعك من أن...

- صرخ المفوض، اخرس! أنت غربي! عليك أن تثبت جدارتك قبل أن نعترف بك مواطناً.

- لكن لا أريد أن أصبح مواطناً. كل ما أريده أن أذهب إلى «هاي هاربور». في المرة القادمة، واحد من المراكب..

- تدخلت الطبيبة: لا تكن أبله. بعد وقت قصير، جميع سكان «هاي هاربور» سيُسعَدون بالحصول على الجنسية. لو أنك تقبل نصيحتي..

- قلت اخرس، أمره المفوض مجدداً، ثم زأر قائلاً، يا مواطن «ريبكو»!

ظهر عند مدخل الباب رجل ضخم شاحب العينين، رخو المفاصل، ومن دون لحية تقريباً.

- أمرُك أيها المواطن المفوض؟

- زمجر المفوض: خذ هذا الشاب الأحمق. تأكد أن يوسم بإشارة وأن يدرج اسمه في اللائحة، ثم أرسله للقيام بمهمة.

أُدخِل كونان إلى غرفة أخرى، وجُعِل يقف وقفة انتباه، فيما كان

المواطن «ريبكو»، وبمتعة واضحة، يستخدم قلماً وقطعة بلاستيكية تشبه الورق لتسجيل الاسم وتاريخ الإنقاذ والمعلومات الأخرى ذات الصلة. وفي آخر الأمر، أخذ المواطن «ريبكو» ما بدا أنه أنبوب معدني بلاستيكي، وأمر كونان بالوقوف عند الحائط.

- ما هذا؟ ماذا ستفعل؟ سأل كونان بنبرة مثيرة للريبة.

- اخرس وقف بثبات!

رأى كونان أن الرجال الآخرين في الغرفة كانوا يراقبون بتمعن، فيما كانت تُمرر نهاية واحد من الأنابيب فوق جبهته. سُمِع صوت قرقعة فيما كان النابض يُسحَب مرة أخرى، ثم حدثت طقطقة مفاجئة جعلته يلهث، عندما مُرِّرَت إلى داخل جلده مئات القطرات اللاذعة من إبرة تطريز.

- انتفض بغضب مبتعداً، ما.. ما الذي فعلته بي؟

- قال عامل الأنبوب وهو يبتسم: انظر في المرآة. انظر كم جعلناكَ تبدو وسيماً!

كان كونان يحدق بزجاج متصدع مُعَلق قرب الباب. على جبهة الوجه المندهش الذي ينظر إليه، ظهر صليب قرمزي اللون. صليب لا يمحى من ذاكرته. فهو إلى الآن يتذكر أن هذه هي الطريقة التي اعتاد اتحاد السلام أن يَسِم بها سجناءه، باستخدام أداة وشم تدفع اللون إلى داخل الجلد.

تحسس العلامة المتوقدة بأصابع مرتجفة، واستدار ببطء غاضباً. حتى ذلك الحين، ربما يكون قد أوقفه غضبه المتصاعد. بيد أن ضحكات الرجال الأربعة، الذين كانوا يشاهدونه، المفاجئة والصاخبة، كانت تفوق قدرته على الاحتمال.

على الفور مزقت حنجرته صرخة كره نقية. وقبل أن يدرك أحد ما يفعله، انتزع الأنبوب من «ريبكو» المبتسم ومرره على جبهة الرجل. فعل ذلك بسرعة، وبهذا الدفق من القوة دُفِع «ريبكو» إلى الخلف، وثُبِّتَ في

الزاوية. وفي فورة غضبه، لم يفكر كونان أن يَضبط آلية عمل الأنبوب، فأمر كهذا لم يكن يعنيه. كانت الإبر ذات الألوان الصبغية بارزة بالفعل. وكانت وخزة واحدة منها تسبب عواء. حينها سقط المواطن «ريبكو» يتلوى على الأرض.

استدار كونان إلى الأصوات الغاضبة. قيد رجلان ذراعيه، وحاول الثالث انتزاع الأنبوب من قبضته. عصر كونان محتويات الأنبوب على جبهة الرجل، ثم تحرك بشكل دائري محولاً الأنبوب إلى هراوة. كُسِر في نهاية الأمر، فعلى ما يبدو كان مصنوعاً من المعدن المصبوب. وفي هذا الوقت، لم يشعر أي من الرجال أنه قادر على كبح قدرة كونان، ولا حتى المفوض ذو اللحية الحمراء الذي وقف محدقاً عند باب مكتبه.

ومع موجة الغضب الأخيرة، رطم كونان نهاية الأنبوب بالأرض إلى أن أصبح في حالة يستحيل فيها إصلاحه، ثم قذفه في وجه صاحب اللحية الحمراء. لم يُبدِ أي مقاومة عندما انهال عليه الرجال في القاعة وطوقوه.

***

قام ستة رجال هادئين برؤوس رمادية بسحبه إلى الخارج عبر الساحة. ومن دون أن ينطقوا بكلمة، قذفوا به على طول الواجهة المائية إلى منطقة نصف مغمورة، ثم إلى حجرة خرسانية بُنيَت في الحائط. بدا المكان كما لو أنه كان في السابق صندوق حراسة. دفعوه إلى الداخل -دفعوه بلطف على ما يبدو- ثم أغلقوا الباب البلاستيكي الصغير وأقفلوه.

كان كونان يتلصص بفضول، من الشقوق الضيقة في الجدران، على الرجال في الخارج، ويسأل نفسه من هؤلاء. إنهم بالتأكيد ليسوا حُراساً منتظمين. بالكاد نطقوا بضع كلمات عندما كان معهم، وقد سمع أحدهم يقول بنبرة منخفضة، بينما كانوا يهمّون بالعودة: أرأيتم ما فعله بـ«ريبكو»؟

- سمع صوت ضحكات خافتة، ثم قال رجل آخر: «هاجل» نال

نصيبه أيضاً! وقد نفد اللون الصباغي تقريباً، مع أنه كان يصبغ بتدرجات جميلة من اللون الوردي.

- تلا ذلك ضحكة سريعة مقموعة، ثم قال أحدهم: كان «باتش» العجوز يتوسل من أجل الحصول على مساعد أشد قوة. فإن حصل عليه «باتش»، سيكون عقاباً كافياً للصبي. لا أتمنى لأي أحد..

ابتعد الرجال عن نطاق سمعه. كان ينظر إليهم باهتمام إلى أن ابتعدوا عن نطاق رؤيته. فيما بعد، بدأ يتجول ويتمتم بينه وبين نفسه -وهي عادة كان قد اكتسبها في الجزيرة، عندما كان يحاول البحث عن حل لمشكلاته، التي كانت حياته في الغالب تعتمد على حلها- ثم مشى في سجنه الصغير على نحو دائري. في بعض الأحيان، كان يتوقف وينظر عبر الشقوق لتفحص المحيط. وبفعلته هذه كان قد فوّت عليه القليل جداً، وجمع بالفعل رصيداً مدهشاً من المعلومات منذ مجيئه إلى الشاطئ. وبينما كان يحاول أن يرتب ملاحظاته في صورة أوضح، سمع كشط حذاء بلاستيكي على الرصيف المتصدع في الخارج.

ضيفته كانت الطبيبة «مانسكي». كانت عيناها السوداوان في وجهها الهزيل القاسي تتلألأ بحنق بارد.

- قالت بلهجة قاسية: أيها الغبي! أنت أحمق كلياً. ما الذي دفعك إلى أن تتصرف بتلك الطريقة؟

- وعلى الرغم من مأزقه غير المؤكد، تملكه شعور غريب بالهدوء وأجابها: كيف كنت ستردين لو أنك كنت مكاني؟

- لماذا؟ لماذا؟ كنت استخدمتُ عقلي. ألا تدرك أنك وقّعت على مذكرة موتك؟ لا يمكنك أن تهاجم مواطنين من «النظام الجديد»، وأن تحطم ممتلكات قيّمة من دون أن تتلقى عقاباً. من المحتمل أن تصبح غير مؤهل للحياة.

تجاهل كونان ما كانت تقوله، وتمنى لو أنها تذهب بعيداً.

- هل سمعتَ ما كنت أقوله؟ غير مؤهل! ثم تجاهلها مجدداً. ألا تخيفكَ فكرة الموت؟

- لا

- لا تقل هراءً كهذا. بالطبع تخيفك.

- أجابها ببطء: لا، فأنا لم أشعر بالخوف منذ...

- حسناً؟ منذ متى؟

- لا تهتمي. لن تفهمي ما أقوله. لقد.. لقد أُرسِلت إلى هنا لهدف محدد.

- حدّقت به ثم قالت: من أرسلك؟ ومن أجل أي هدف؟

- لا أعرف بعد. لقد حاولتُ مسبقاً أن أوضح لكِ...

- ضحكت الطبيبة باستهزاء، ما تقوله هراء! ولا تكرر لي أياً من هذه الأقاويل الغبية، وإلا فلن أضيع وقتي في مساعدتك. عليّ أن أغادر في الصباح.

- لماذا عليكِ أن تساعديني؟ لماذا؟

- لأن «النظام الجديد» يحتاج إليك! اندفعتْ نحوه بغضب وتابعتْ: إنه يحتاج إلى يفاعتك وقوتك، لكن الأمر سيستغرق كل ما سأبذله من جهد لكي يتجاهل المفوض ما فَعَلْتَه. لقد آذيتَ اثنين من الرجال بشدة، ودمرتَ كلياً أداة الوسم الوحيدة التي نملكها. سينبغي عليك أن تنحني على ركبتيك وتستميح المفوض أن يغفر لك. حتى حينها...

- لن أطلب المغفرة من أحد. ومن الأفضل للمفوض أن يستميح مغفرتي. ما الحق الذي تمتلكونه حتى تسموني بهذه الطريقة؟ هل أنا مجرم؟ لا! هل جئتُ إلى هنا برغبة مني من أجل العمل؟ لا! أنا أحتقركم جميعاً. أنتم أسوأ من اتحاد السلام. أنتم...

- اخرس واسمعني...

- صرخ كونان قائلاً: عليكِ أنت أن تسمعيني. من تخدعون بكلامكم عن إعادة بناء العالم؟ الناجون الذين أسرتموهم ووسمتموهم؟ ما هذه

الكذبة؟ أنتم تسببتم بحادثة التغيير في بادئ الأمر، ولا تقولي إنكم لم تفعلوا هذا، لأنكم فعلتموه. وكل ما ترغبون به الآن أن تدمروا ما تبقى من العالم. لو أنكم تتمتعون بالأخلاق...

- أوه، توقف عن التحدث كالأبله. ألا تدرك أن الأمر تطلب تورط أكثر من طرف لإيقاع الضرر؟

- لا أصدق هذا!

- لكن هذا ما حدث. وينبغي على أحدنا أن يعيد جمع القطع المتناثرة معاً.

- ستفعلون ذلك على طريقتكم بوسم السجناء. وإن أمكنكم ستستولون على «هاي هاربور» وتسلبون الجميع حقوقهم. لأنكم أقذر مجموعة...

- اخرس! أمرته قائلة: ما من أحد يملك هذا الحق، حتى أنا. الدولة صاحبة الحق في هذا -«النظام الجديد»- الدولة فقط لها...

- الدولة، يا إلهي! أفكار غبية!

- أنت الغبي! غبي وجاهل. بالتأكيد سنستولي على «هاي هاربور»، في القريب العاجل. سنسدي لهم معروفاً بفعلتنا هذه. إنهم عاجزون كلياً عن الاهتمام بأنفسهم. لو أنك ترى..

- أرى كم أنت شريرة وفاسدة. وطماعة أيضاً. كان يتحدث معها بغضب شديد، ويشعر نحوها بكره لم يكنه لأحد قط. صرخ في وجهها: اذهبي بعيداً، واتركيني وشأني.

حدقت به قليلاً، غارت عيناها السوداوان، وتصلب فمها الرقيق. فجأة، استدارت على كعبها وراحت تبتعد. وعلى بعد عشر ياردات من سجن كونان تباطأت ثم توقفت. استدارت ببطء وعادت إليه.

- حدثته بشغف: أنت صغير السن. صغير أكثر مما يبدو عليه الطفل. وفي غاية الغباء. لكنك ستحاكم على أنك بالغ لأنك طويل القامة وقوي. نحن بحاجة إلى قوتك، وهذا وحده كفيل بأن ينقذك.

فتح فمه ليتكلم، ثم أغلقه بحكمة عندما تبين له أنها كانت تحاول مساعدته حقاً.

- قالت له: لدي بضع دقائق فقط. وقد لا أراكَ مجدداً عندما أغادر. قد تحاسب على أنك غير مؤهل، وتُساق إلى الرمال.

- الـ... رمال؟

- إلى الصحراء. إنها تبعد مئات الأميال. ونادراً ما نقتل أحداً، ما لم يحاول السجين العودة. حينها يُقتل بالرصاص.

- توقفتْ لحظة ثم أكملتْ كلامها على عجل: اسمعني جيداً. سأتحدث إلى المفوض، ومع الآخرين إن استطعت. وفي حال استدعوكَ للاستجواب عند المفوض، افعل ما قلتُه لك. لا تكن كالأبله مجدداً. وتذكر جيداً، إن قُدِّر لك أن تعيش، فالأمر يستحق العمل من أجل المواطنة. المكان هنا أفضل مما تظن. ثم تابعتْ كلامَها بلهجة قاسية، إن استطعتَ أن تثبت نفسك مواطناً، ستعرفُ حينها كم هو أمر جيد. إننا نعمل جميعاً من أجل الدولة، ولا مكان للجريمة هنا. لذلك من البديهي أن لا وجود للشرطة. لكن يوجد عقاب كما ستعرف بنفسك. أمثالك يجب أن يعرفوا أن «النظام الجديد» يأتي دائماً في المقام الأول.

فجأة، هزت رأسها بغضب، ثم استدارت لتغادر، وقالت من فوق كتفها: لا أعرف لماذا أزعج نفسي بأمركَ. أنتم أيها الغربيون قتلتم ابني، لهذا أملك كل الحق في أن أكرهكم. أنهت كلامها وابتعدت متجهمة.

***

بعد وقت من ابتعاد الطبيبة «مانسكي»، وقف كونان يراقب من سجنه الواجهة المائية الفارغة، ويفكر بما قالته، وبكل ما رآه وسمعه. لا توجد شرطة هنا؟ إذن، لابد أن مدينة «إندستريا» هي المكان الذي يراقب فيه الناس بعضهم بعضاً. سيخشى المرء أن يضع ثقته في أخيه. ومن يدير الأمور؟ المفوضون؟ ومن هؤلاء الرجال المتوسطو السن

الذين أحضروه إلى هنا وأقفلوا الباب عليه؟ إنهم يقفزون مسرعين عندما يناديهم المفوض من أجل المساعدة، لكنهم كانوا مسرورين سراً بما حدث. من المستحيل أن يكونوا حراساً منتظمين. لقد بَدَوا كأنهم... حسناً، بَدَوا كأنهم أطباء أو رجال محترفون. ثم أدرك أن هذا ما كان ينبغي لهم أن يصبحوا كيميائيين، وعاملين في كل أصناف العلوم والتقنيات. بالطبع! لابد أنهم جاؤوا إلى هنا منذ البداية، ذلك أن الأمر يتطلب أناساً كهؤلاء من أجل استمرار المدينة الكيميائية.

ما من شيء يبدو أنه يعمل بسرعة هنا.

علامات النشاط الوحيدة بعيدة جداً عن الواجهة المائية المتعرجة، حيث كان بإمكانه الخروج من مؤخرة سفينة خفر السواحل التي أحضرته من الجزيرة إلى هنا. في بعض الأحيان، يظهر أناس على الرصيف المهلهل بجانبها، يحملون صناديق كانت على متنها. قاطع جدار المبنى الذي بُني سجنه الصغير بداخله، نظراته إلى الجانب الآخر.

فجأة، عندما نظر مجدداً إلى المنطقة المغمورة القريبة منه، أدرك أن جزءاً هاماً من المدينة قد أغرقه التغيير. أولم تغرق معه، وفي الوقت نفسه، عقول قيّمة؟

أخبره شعور غريزي بداخله أن مدينة «إندستريا» ليست كما رغبت الطبيبة «مانسكي» أن تظهرها. بإمكانه أن يسمع ما يدور حوله من أعمال، لكن شيئاً ما كان مفقوداً. ما هو؟ ثم تذكر أن كل منطقة صناعية زارها كانت تصدح فيها أصوات ناعمة من الهمهمة والخرخرة. «إندستريا» لم تملك أياً منها. أيعقل أنها تُدار بوحدة الطوارئ؟

عبس كونان بالقسم الغارق. لو أن المدينة تُدار بالشكل المناسب، وتُنتِج تلقائياً ما يحتاج إليه الناس، لغدت الحياة سهلة للغاية هنا. لكن من الواضح أن الحياة لم تكن كذلك.

ما السبب؟ كانت الإجابة ماثلة أمامه. كان القسم الغارق يحتوي على حطام المعدات الشمسية، وبالكاد غمرته مياه المد الهائل. وفي حالة

كهذه، كان قلب مدينة «إندستريا» ميتاً. وماتت معه من دون شك، القلة المختارة التي تعرف سر بناء قلب جديد.

لا عجب إذن أنهم يريدون «برياك روا»!

تساءل، عندما سمع رنين جرس في المبنى من الجهة اليسرى، عما إذا كانت ستحل الظهيرة. خرج من المدخل رجال ونساء يرتدون، على حد سواء، ستراً رخيصة. من الواضح أنهم سمعوا بأمره. حدقوا به جميعاً بفضول قبل أن يستديروا ويسرعوا نحو الواجهة المائية. آخر عاملَين في المجموعة ذهبا في الاتجاه المعاكس. وفيما كانا على مبعدة بضع أقدام، نظرا إليه نظرة ماكرة. وكان كونان مندهشاً لرؤية أن جبهتيهما وُسِمتا بصليب قرمزي يشبه صليبه.

- ناداهما: مهلاً! لحظة واحدة من فضلكما...

أشاحا بنظرهما من دون استجابة، وسارعا بالابتعاد عن ناظره نحو جدار الإسقاط. وفي نوبة غضب سريعة، ضرب كونان قبضته بالإسمنت المحيط به فتكدمت. ثم تأوه وهز برأسه.

لقد شخّص بالفعل حقيقة الوضع هنا. الكل يخاف من الكل، الموسومون منهم على وجه التحديد، والعمال النمطيون. فإن تحدث إليه أحدهم، يتم الإبلاغ عن ذلك.

انتهت فترة الغذاء سريعاً، وكان كونان يراقب عودة العمال. إن فكرة الطعام الاصطناعي كانت تُبعد عنه الشهية، لكن عطشه للماء كان يزداد، وكان يتمنى لو أن أحداً يحضر له شربة ماء.

في منتصف الظهيرة، بدا له أن مفوض العمل قد يبقيه هنا عدة أيام إلى أن يموت من العطش. تفجر الغضب في داخله مجدداً، ومن دون أن يفكر بما كان يفعله، رفس بوحشية الباب البلاستيكي، فبان صدع طويل قرب أحد المفصّلات.

اتسعت عيناه لرؤية التصدع. ثم هيأ نفسه وبدأ الركل مجدداً، وبقسوة هذه المرة. تجمّد مكانه فجأة. أحدهم كان يتجه نحوه.

ظهرت من زاوية حائط الإسقاط عربة طويلة، تجرها أربع عجلات من البلاستيك. كان رجل مسن هزيل للغاية يدفعها إلى الأمام، له لحية بيضاء، وكتلة برية من الشعر الأبيض السميك. بدا شخصاً غضوباً، يمكن وصفه، من الرقعة السوداء التي غطت عيناً واحدة له، أنه من القراصنة. على جبينه صليب قرمزي. وبينما كان يمشي متثاقلاً، متذمراً بشدة، متمتماً بصوت منخفض، كان كونان مندهشاً لرؤية العين السليمة تنحرف بسرعة نحوه، ثم تغمض بغمزة.

اختفى الرجل والعربة عند الواجهة المائية. ظهرا مجدداً بعد بضع دقائق، وكانت العربة حينها محملة بصفائح متعددة من البلاستيك الثقيل. وعندما تقدمت نحو السجن، مالت فجأة على الرصيف المكسور، وسقطت الصفائح البلاستيكية.

- انفجري، تحطمي! غمغم القرصان. ثم بدأ بتحميل قطع البلاستيك، وكان طيلة الوقت يلعن متمتماً بسيل من الشتائم. في خضم العمل، وفيما كان يلتقط أنفاسه، همس بسرعة، ينادونني «باتش»، هون عليكَ يا بني، أراكَ الليلة.

ثم سمع همسة أخيرة، كانت محتجزة بين التمتمات، وصلت إلى مسامع كونان فيما كانت العربة تبتعد. لانا حصلت على «تيكي» مجدداً!

الصدمة صلبت كونان. ثم أخبر نفسه بأنه من المستحيل أن ما سمعه كان صحيحاً. هذا كان من المستحيل! فكيف يمكن لهذا العفريت المسن أن يكون الرجل الذي عليه أن ينطق الكلمات القليلة الأخيرة؟

لكنه كان كذلك. وحده «تيتشر» يعلم بأمر «تيكي». «تيتشر» كان هنا، سجين لدى «النظام الجديد»، لكن تبدل كثيراً في مظهره وسلوكه، لدرجة أنه لم يعد هناك إمكانية أن يتعرف عليه أولئك الذين يبحثون عنه.

4- أورلو

ملأت لانا إبريق الشاي، وتركته لبضع لحظات، ثم أحضرته إلى الطاولة حيث كان «شان» يخوض محادثة حامية مع المفوض «دايس». لقد أعدت الشاي لأنها تعرف أن «دايس» كان بحاجة إليه، وليس بدافع كرم الضيافة. كان المفوض، لأيام عدة، يلاحق «شان»، مهدداً إياه ومتنمراً عليه، مرة من أجل أمر معين، ثم من أجل أمر مختلف. كان الجدال بعد ظهر اليوم حول الطائرة المهجورة.

- نريد أن نستولي عليها. إنني أُصر على ذلك بكل تأكيد، قال المفوض.

- لا، رد عليه «شان» بفتور. وراح يتأمل لحية المفوض السوداء بغضب.

- لا تقل لا. أنت لا حاجة لك بها على الإطلاق. حتى أنه لا يمكنك أن تصلحها. وإن تمكنتَ من جعلها تطير، أين ستجد الوقود؟

- لا، كرر «شان» إجابته. وأضاف، إن الطائرة لم تكن ضمن الاتفاقية التي عقدناها مع موظفي المسح. ناهيك عن...

- انس الاتفاق. أنا المسؤول عن المقايضة. قال المفوض قوله ثم ضرب بقبضته الثقيلة الطاولة، ما جعل الأطباق تهتز.

- قاطعته لانا: حضرة المفوض، إن يهمك أن تشرب الشاي، عليك أن تتوقف عن ضرب الطاولة، حتى أتمكن من سكبه.

- مـاذا؟ شاي؟ مالت اللحية السوداء نحوها، وبدت العينان

الصغيرتان تحت الحواجب الثقيلة، تدرك وجود لانا للمرة الأولى. أوه، حسناً، اسكبيه يا فتاة، اسكبيه.

قمعت لانا في داخلها رغبة شيطانية ملحة في أن تسكب محتويات الإبريق تحت رقبة المفوض، وبعناية فائقة ملأت الكوبين. ثم سمعت «شان» يتمتم، أين «مزال»؟ فأجابته بهدوء، ذهبت للصيد.

كانت «مزال» قد قالت سابقاً، إن اضُطرِرْتُ للاستماع لذلك الضفدع مجدداً، سأفقد أعصابي، وسأزيد الطين بلة. بكل الأحوال، نحتاج طعاماً من أجل العشاء. وربما أستطيع صيد سمكة المفلطح.

قبل أن تغادر، قالت «مزال»: ألا تريدين أن تحاولي ولو لمرة واحدة فقط؟ لكن لانا أومأت رأسها بسرعة، خائفة من فكرة أنها أصبحت على مقربة كبيرة من البحر الغريب الذي كانت تخاف منه وتكرهه بشدة. في الماضي، كانت تحب البحر والشواطئ، لكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على الاقتراب من الميناء. كان محمياً، وكان رأس الأرض البارز يسد رؤية الامتداد الهائل الممتد خلف الأفق. لكن «مزال» اصطادت صيدها على الخليج المفتوح الواقع على الجهة المقابلة من الرأس. لم تستطع لانا الذهاب إلى هناك.

كانت تعرف، طالما أنها على قيد الحياة، لن تتمكن من قهر خوفها من ذلك الارتفاع الهائج، من المد المزمجر الذي اجتاح الأرض في الليلة التي أحضرتها فيها «مزال» إلى هنا. أحضرتها بالطائرة الصغيرة، توأم الطائرة التي استعان بها «تيتشر»، وكانت محملة على نحو خطير بمعدات «شان» الطبية، ولم يتمكنوا من مواكبة الطائرة الكبيرة مجدداً. ظلوا يغرقون في الأعماق أكثر فأكثر.

فجأة وجدت لانا نفسها تتساءل مجدداً عن التفاصيل التي نسيتها تقريباً. قطع المفوض أفكارها. كان يرشف الشاي من فنجانه بصوت مزعج. ما هذا الشاي يا فتاة؟

- السسافراس.

- ماذا؟ ما هذا؟

- إنها شجرة تنمو هنا. ونحن نستعين بالجذور.

- تناولَ رشفة طويلة أخرى. المذاق ليس سيئاً، ليس سيئاً على الإطلاق. أفضّلُ أن أحصل على بعض الرزم من هذه الجذور ومعها أشياء أخرى.

- هز «شان» رأسه بالنفي، أخشى أنه لا يمكنك ذلك.

- وضع المفوض فنجانه على مهل وقال: ماذا؟ ترفض هذا وترفض ذاك. أنت ترهق صبري أيها الطبيب. أعتقد أنك تدين لي ببعض التفسير.

- لا أدين لك بشيء. رد عليه «شان» بحدة فاجأت لانا. خلع نظارته، وفرك عينيه المتعبتين، وقال ببطء: لدينا القليل من هذه الأشجار، وهي تمدُّنا بمشروبنا الوحيد. كان «تيتشر» قد زرع الشجرات قبل حادثة التغيير مع مزروعات أخرى لا تنمو بالعادة هنا. وقد أثمرت بسرعة، وفي بضع سنين، سيكون لدينا بعض الفائض منها. لكن ليس الآن. إنها من ضمن الممنوعات من المقايضة.

- إذن؟ ومن منعها من المقايضة؟

- «تيتشر».

- وهل «تيتشر» منع مقايضة الطائرة أيضاً؟

- بالتأكيد، وأنا لا أفكر في مخالفة أوامره.

- عتّم احمرار خطير وجه المفوض. أتحاول أن تخبرني أن «تيتشر» الخفي هذا يدير «هاي هاربور»، ويملي عليك ما ينبغي أن تفعله.

- بالتأكيد، لم لا يفعل ذلك؟ رد عليه «شان».

خيّم صمت في المكان. ومن مكان ما في بستان الصنوبر فوق الكوخ، كان بإمكان لانا أن تسمع صوت نعيق الغراب. تردد النعيق ثلاث مرات، وكان حقيقياً لدرجة أنها كانت ستبدي اهتماماً طفيفاً به حتى لو أنها لم تكن تصغي.

استدارتْ بعيداً عن الخزانة التي كانت تنظفها -كذريعة للبقاء في المطبخ- وبدأتْ ترتدي عباءتها. ثم ترددتْ لأن المفوض انفجر مجدداً.

- ثرثر بغضب: لقد سئمتُ من السعي وراء «تيتشر». أهو على قيد الحياة؟ بدأتُ أشك في ذلك. اسمعني الآن. وبينما كان يكمل كلامه، اندفعت سبابته السميكة تحت أنف «شان». لقد أعطيتُ صِبيتَكَ الأدوات لقطع الأخشاب التي وعدتني أن يقطعوها، لكنك لن تحصل على أي مستلزمات أخرى حتى أرى الألواح ممددة على الشاطئ ومعها الطائرة. أريد أن تُقيَّدَ الألواح في طوافات، وأن تُجمع قطع الطائرة وتوضع فوق الطوافات. أهذا واضح؟

- لن أعطيك الطائرة، قال «شان» باعتدال.

- إذن لن تحصلوا على أي من الثياب التي أحضرتها، ولا الأحذية أيضاً.

- أرادت لانا الثياب -أي نوع منها- بشدة، كما تفعل مئات الفتيات الأخريات. لكنها وجدت نفسها تقول فجأة: احتفظ بأغراضك البالية المهترئة! يمكننا الاستغناء عنها. جميع الفتيات ينسجنَ ثيابهن الخاصة، وهي أفضل بكثير مما أريتنا إياه. والأمر نفسه ينطبق على الأحذية أيضاً، أترى؟

أمسكتْ رداءً من الصوف والكتان، كان قد استغرق منها كثيراً من الجهد والتعب، ودفعتْ إلى الأمام قَدَمَاً صغيرة على هيئة حذاء قصير منسوج. وقبل أن يتمكن المفوض المرتبك من استعادة هدوئه، والبدء بطرح الأسئلة لم تكن تفضل الإجابة عنها، رمتِ الرداء على كتفيها واتجهت نحو الباب. قالت لـ«شان»: سأذهب لأجد فأسنا.

نعق الغراب مجدداً وهي تخرج من الباب.

عند زاوية الكوخ، ترددت لانا ونظرت حولها بانتباه، لتتفحص فيما إذا كان أحدهم يراقبها. بعد أن اطمأنت، سارعت عبر الأشجار أمام مكتب

«شان»، وبدأت تتسلق المنحدر على الجانب الآخر. لماذا كانت تفكر ببؤس؟ أيعقل أن شيئاً اعتيادياً كقطعة ملابس، يمكن الاستغناء عنها، قد يكون من الصعب إنجازها يدوياً؟ لم يكن نسج الثياب بحد ذاته فقط. فهي كانت تجد متعة في ذلك حقاً. لكن هنالك التحضير اللانهائي الذي يسبق النسج -قص الصوف، وزرع خيوط الكتان، وغيرها من الخطوات الأخرى التي ينبغي عليها إنجازها من دون أن تتعارض مع المهمة الرئيسية بإيجاد ما يكفي من الطعام من أجل البقاء على قيد الحياة. بصراحة، لا يمكن لوم بعض الشبان على ترك العمل الإضافي والتحول إلى وحوش.

لكن ملابس «النظام الجديد» تفي بالغرض. كانت مهلهلة بالطبع. كانت من أردأ الأنواع التي رأتْها على الإطلاق. لكنها بأي حال كانت أفضل من عدم توفر ثياب على الإطلاق.

توقفت فجأة في منتصف الطريق في أعلى المنحدر، وهي تفكر مجدداً بالأشياء التي كانت قد نسيتها. كان أمراً يخص الطائرة الصغيرة التي كانت تستقلها هي و«مزال» للطيران إلى هنا. توأم طيارة «تيتشر». الطائرة الكبيرة التي لحقتا بها- التي حلق فيها «شان» محملة بالأطفال- كانت شبيهة بالطائرة المروحية «الهيلوكوبتر». لكن الطائرة الصغيرة لم تكن كذلك. كانت مختلفة للغاية.

ما الذي كان مختلفاً فيها؟

- قالت بصوت عالٍ: لم يكن فيها دوارات للمصعد!

ولم يكن فيها أجنحة أيضاً أو ما يشبه المحرك. ومع الحمل الثقيل الذي كدسته لانا و«مزال» بداخلها، بالكاد استطاعتا الوصول إلى «هاي هاربور».

في الواقع، نزلتا في الغابة على بعد ميلين من الميناء، وأمضتا أياماً في حمل المعدات الطبية. من الغريب أنهما لم تعودا أبداً إلى الطائرة، و«مزال» لم تذكر الأمر على الإطلاق، حتى ذلك المساء الأخير بعد أن تحدثت مع «تيتشر».

- لا أعرف فيما إذا كان الأمر يتعلق بي أم بالطقس. لكنني لم أكلف نفسي عناء اكتشاف ذلك. يقول «تيتشر» إننا لن نقايض الطائرة، أو أي جزء منها، مهما تكن الظروف. وأخبرْتُه أن الطائرة الصغيرة ما تزال مخبّأة في الغابة حيث هبطنا، وقال إن ذلك جيد، لأنه لا يرغب أن يعرف مكانها أولئك الناس هنا.

أما بالنسبة إلى لانا، السبب كان واضحاً على الفور. في بُنية الطائرتين، الصغيرة بالتحديد، ثمة أسرار لا يمكن الوثوق من أن لا يستولي عليها «النظام الجديد».

كان هنالك ما هو أكثر من رسالة «تيتشر»، وعندما فكرتْ بالأمر، شَعَرَتْ مجدداً بغضب وفرح سريعين. الغضب من أن «النظام الجديد» يعامل الغربيين بسوء، والفرح لأن «تيتشر» قد رأى كونان بالفعل وتحدث معه. ليس لأن كونان في حال أفضل الآن، بل لأنها عرفت بشكل مؤكد مكانه، وجعلها قربه من «تيتشر» تشعر بعالمها قريباً منه.

نعيق الغراب، بالقرب منها هذه المرة، أعاد لانا إلى الحاضر وجعلها تحث خطواتها على المنحدر. توقفت في القمة بالقرب من شجرة صنوبر ملتوية وبحثت في ظلال الجانب الآخر. كانت حذرة ألا تُدير رأسها بعيداً، فارتفاع المنحدر وفر لها رؤية شاملة ومخيفة للبحر.

- همست، «جيمسي»؟

من وراء الشجرة، ظهر مخلوق صغير رث الثياب، حافي القدمين، برأس أحمر، ملطخ بالنمش. حمل بإحدى يديه القذرتين قوساً وسهمين، وفي الأخرى سنجاباً ميتاً.

- صاحت مفجوعة: أوه، «جيمسي»! كيف فعلت هذا؟ لقد قتلتَ واحداً من حيواناتي الأليفة.

- عينان قاسيتان باردتان مثل العقيق تفحصتاها من تحت القش الأحمر، أريد أن آكل. وهنالك اثنان آخران أريد أن أطعمهما.

- لكن يوجد سمك!

- أوه، سمك. رد «جيمسي» بازدراء. كليها أنتِ. أنا أريد اللحم.

تأوهت لانا. لم يكن «جيمسي» قد ناهز العاشرة، وكان يكبر بطريقة برية. لم تكن تعلم ما الذي يجعله يواظب على المجيء إلى الدروس التي تدبرت أن تدرّسها مرتين أسبوعياً في الصباح. لكنها كانت ممتنة لأنه ظل صديقها.

- هل عَثَرْتَ على فأسنا؟

- أجل.

- حسناً، أين هي؟

- أشاح «جيمسي» بنظره بعيداً وأخرج لسانه المدبب فوق فمه القاتم: أخذها «أورلو».

- أوه، لا!

- لذلك لم أحضرها.

- وأين مكان «أورلو»؟

- لماذا تريدين أن تعرفي؟

- لأنني أريد الفأس، وسأحضرها يا «جيمسي». بتلك الفأس سيقطع الخشب عشرون شخصاً. وببساطة، لا يمكننا أن نعمل من دونها.

لقد كانت أكثر من مجرد أداة لقطع الخشب، كانت أداة شاملة تُوّظف لأغراض عدة.

- لعق «جيمسي» شفتيه الرقيقتين مجدداً، وقال: لو كنتُ مكانكِ لما كنت لأذهب إلى هناك.

- بالتأكيد لا أريد أن أذهب، لكن من سيفعل هذا من أجل؟

- لا أحد. الجميع يخافون منه.

- إذن الأمر يعود لي. كيف أصل إلى هناك؟

- لا... لا يمكنني أن أخبرك. الطريق طويلة.

- إذن خذني إلى أقرب نقطة حتى أتمكن من العثور عليها بمفردي. لن أخبر أحداً أنكَ ساعدتَني.

- أتعدينني؟

- أعدك بكل تأكيد. لنذهب الآن.

عندما تركها «جيمسي» كانت قد وصلت إلى سلسلة من التلال إلى الجنوب من «هاي هاربور». في مكان ما في الأسفل، إلى اليمين منها، هنالك وادٍ يختبئ فيه معسكر «أورلو».

بدت المنطقة مألوفة بشكل غامض، لكنها لم تستطع التعرف عليها حتى تسللت إلى الوادي ورأت الينبوع الصغير. اتسعت عيناها لما رأت المياه تتدفق فوق الصخور المسطحة مشكلة مجموعة من البرك. عرفت البرك على الفور. كانت على حالها منذ خمس سنوات عندما توقفت برفقة «مزال» لشرب الماء. التغيير الوحيد الذي ميزته كان في الأشجار. أصبحت أكثر سماكة عما كانت عليه عندما رأتها للمرة الأولى، في اللحظة التي سقطت فيها الطائرة الصغيرة عندما اضطرت «مزال» للهبوط الإجباري.

لم تستطع رؤية الطائرة الآن، فالأشجار كانت قد نمت طويلاً فغطتها كلياً. لكنها كانت تعرف مكانها بدقة.

ترددت للحظة معتقدة أنه من الحماقة أن تكمل الطريق. ثم فكرت في الفأس الثمينة. كانت أداة رفيعة من الفولاذ الصلب، خفيفة بما يتيح للفتاة أن تستخدمها، وكان ينبغي أن تخدم جميع القاطنين في الركن الجنوبي من الميناء.

تصلب فمها بعزم. شدت قَبْضَتَي يديها الصغيرتين وتقدمت بسرعة إلى الأمام. فجأة شمت رائحة لحم مطبوخٍ، وما هي إلا ثوانٍ حتى وَجَدَتْ نفسها على حافة مساحة خالية تقريباً. أمامها مباشرة، كان صبي يجلس بالقرب من النار المشتعلة، كان يقلّب ببطء، بأوتاد متشعبة، شيئاً فوق شتلة خضراء. بدا كأنه جثة ماعز.

بنظرة واحدة خاطفة حملقت لانا في الأكواخ والملاجئ الفارغة على اليمين، والطائرة الصغيرة المثبتة بين الأشجار مثل دمعة مسطحة، وكومة الأخشاب خلف النار. الفأس التي اقتطعت الأخشاب كانت ممددة على الأرض.

بدا أمراً جيداً أن تعثر على معسكر «أورلو» مهجوراً ما خلا من الصبي الجالس قرب النار. من المحتمل أن البقية ذهبوا يبحثون عن الطعام في مكان آخر.

بينما تسمرت عيناها على الصبي الذي كان يدير ظهره لها، انزلقت بهدوء نحو كومة الأخشاب. وعندما أصبحت الفأس في متناول يدها تقريباً، سمعتْ صوت طرطقة معدنية إلى اليسار منها. ارتعش رأسها وتجمدت.

كان «أورلو» يتأرجح من الطائرة الصغيرة. وقف متكئاً عليها، يمضغ اللحم بكسل وهو يتفحص لانا بوقاحة بعينين ضيقتين. كانت لديه بداية لحية بدا أنه فخور بها جداً، وكان يمسك بيده الخالية من اللحم رأس شعيرات لحيته ويفتلها. بشعره الأشعث وسترة جلد الماعز، ظَنَّتْ أنها ترى إلهاً وثنياً، يافعاً، ومقيتاً بكل تأكيد، كانت من دون شك قد قرأت عنه ذات مرة.

- حسناً، حسناً، انظروا من جاء لرؤيتي! فجأة رمى قطعة العظم في اتجاه النار- وهو فعل كُوفِئ عليه بنباح فوري- ثم أضاف: لماذا لم تخبرني أن لديك أصدقاء يا «ليمبي»؟

- احتج «ليمبي» قائلا: لم... لم أرها يا «أورلو» بصراحة...

- يوماً ما يا «ليمبي» سأقطّعك بحجم قطع اللحم المعدة للطهي. ثم أشاح «أورلو» بنظره إلى لانا. أوه، لا تفعلي ذلك يا فتاة. الفأس ستبقى هنا.

- لن تبقى هنا. ردت لانا ببرود، وتناولت الفأس. لديكَ فأس أخرى.

أشارت إلى فأس بمقبض مكسور. لماذا لا تصلحها؟ هذه الفأس التي أحملها ستخدم عشرين شخصاً.

- ألم تسمعيني؟ قلتُ إنها ستبقى هنا. ضعيها مكانها.

تجاهلته لانا واستدارت مبتعدة. سمعت خطواته الناعمة تقترب منها، وعلمت أنه بإمكانها أن توقفها بالفأس. لكنها لم تجرؤ على أن توظفها كسلاح بيدها.

دفعت ثمن قرارها بأن انتُزِعَت الفأس من يدها. وفي اللحظة التالية، تلقت صفعة لئيمة جعلتها ترتمي على الأرض.

تمكنت بطريقة ما أن تجثو على ركبتيها. كانت تلفظ أنفاسها لاهثة. أصبح «أورلـو» الآن مختلفاً عن ذلك الصبي المتمرد الذي تسبب لـ«شان» منذ عام مضى بكثير من المتاعب. أصبح حيواناً خطيراً أدرك أنه بإمكانه أن يفعل ما يحلو له. في جزء ما من عقلها الذي استمر بالعمل على الرغم من الصفعة، لاحظت أمرين على الفور، أن «أورلو» سيكون بمنزلة تهديد لجميع سكان «هاي هاربور»، وأنها لن تخرج من هنا سالمة ما لم تتمكن من خداعه.

- حان الوقت لتعرفي من أكون. انهضي يا فتاة. سيكون بيننا حديث صغير. ولا تحاولي الهروب، وإلا ستنالين نصيبك من العقاب.

رفضت لانا أن تتحرك. وفكرت في سرها بذهول. ينبغي أن أجعله يطرحني أرضاً مرة أخرى. وأن أسقط فوراً. لكن عليّ أن أثير جنونه أولاً.

- أنت أسوأ أنواع اللصوص القذرة. قالت له بكراهية استطاعت حشدها دفعة واحدة، وأضافت: إننا نعمل بجد من أجل الحصول على ما لدينا، ونتشارك من أجل أن يأكل الجميع. لكنك لا تقدم أي مساعدة. أنت تسرق. من يسرق الطعام بهذه الوضاعة من فتيان بنصف حجمه...

- اخرسي...

- يكون أسوأ من الجرذ نفسه. وأنت غبي! أنت تقتل الحيوانات

المسكينة التي نوفرها للحصول على الصوف. على الفور، مثل أفعى مصعوقة، أطلق يده، وجعلها ترتجف من رأسها إلى قدميها. في اللحظة التالية، كانت تترنح من ضربة هائلة على جانب رأسها. حماها غطاء عباءتها المجعد من أن تفقد وعيها. كان من الصعب عليها أن تحافظ على حكمتها، لكنها استطاعت بطريقة ما أن تقع بجانب النار المشتعلة، لدرجة شعرت معها بالرماد الحار بين يديها.

أجبرت نفسها على البقاء من دون حراك إلى أن سَمِعَتْه يقتربُ منها. ثم أغرقتْ يديها في الفحم، وقذفتْ بالرماد والفحم المحتَرِقَين في وجهه..

صرخ وبدأ يلعن ويتخبط وهو يفرك عينيه بجنون. وقبل أن يُدرك ما كانت تفعَله، وقفت لانا على قدميها، ملوحة بعصا كانت قد انتزعتها من كومة الخشب.

تطلبَ الأمر منها ثلاث تلويحات لتبطَحَ «أورلو» على الأرض، وعندما سقطَ في النهاية، تمدد من دون حراك. رَمَت العصا نحو «ليمبي» المحدق بذهول، مبعدة إياه عنها، ثم أمسكتْ بالفأس وركضتْ.



5- العجوز باتش

ربما يكون الوقت في منتصف الليل، أو بعده بفترة طويلة، عندما أدرك كونان أن أحدهم يقترب منه. في سجنه الصغير، كان بإمكانه أن يخمن الوقت تخميناً، فلا توجد ساعة تدق، وما من نجوم مرئية تلمع في السماء الملبدة بالغيوم. كان الظلام يوفر توهجاً خفيفاً من الضوء المنبعث من مبنى الإدارة. لم يُعطَ طعام أو شراب منذ أن غادرت سفينة المسح، وأصبحت حنجرته تلويه عذاباً. تلصص من شق الجدار على يمينه، محاولاً استنباط الشكل والحركة في الظلام. وقبل أن يستنتج شيئاً، جفل من همسة منخفضة عند حافة الشق.

- كونان؟

- «تيتشر»! رد كونان بصوت أجش.

- امتدت من الشق يد عظمية وأطبقت على يد كونان. إش، إش، إش، لا تلفظ هذا الاسم أبداً وأنت هنا. نادني «باتش»، أو «باتشي».

- حاضر سيدي. يا إلهي! من الرائع أن أراك هنا. من بين كل الأماكن التي فكرت فيها، لم يخطر ببالي أن أجدك هنا.

- إنني هنا منذ أربع سنوات تقريباً. وكنت أنتظرك بالتأكيد، لكن نتحدث عن هذا لاحقاً. الوقت قصير. اسمعني بانتباه يا بني. أحضرتُ كيساً بلاستيكياً من الماء وحِصَتَي طعام. تناول كل حصة من الطعام قبل حلول الفجر. حذار أن تترك الفتات لئلا يراه أحدهم. بعد أن تأكل، اشرب الماء كله، كل قطرة منه، وخبئ الكيس حتى ليلة الغد. يمكنك

طيه ووضعه في حذائك، أو ضعه في شق الحائط. خذ الطعام. ضعه على الأرض، ثم سأمد لك كيس الماء من النافذة.

استطاع كونان أن يميز الطعام بمجرد لمسه لأنه تناول مثله على متن السفينة. كان عبارة عن بُلْغَتَيْن «سندويشين» من المواد الاصطناعية، من الواضح أنها من منتجات الآلة. دفع الطعام غير المرغوب فيه إلى الزاوية، وتناول بشغف كيس الماء. بعد أن فكّ الرباط المعقود في أعلاه، جعل بعضاً من المحتويات يتدفق إلى حلقه الجاف، ثم ربطه مجدداً بعناية ووضعه إلى جانب البُلْغَتَيْن «السندويشين».

- قال المعلم بسرعة: هذا المكان ليس فيه حراس منتظمون. لكن هنالك دائماً أحد يطوف خلسة يتفقد الوضع. لذا عليّ أن أوجز ما أود قوله بسرعة. مهما يكن ما سيقررون فعله بك لاحقاً، فإنهم سيعاقبونك أولاً. سيبقونك هنا مع كمية ضئيلة مع الماء تكفي لأن تبقيك على قيد الحياة. هذا هو أسلوبهم. قد يكون من الحكمة أن تقضي فترة النوم في النهار، وأن تكون متأهباً عندما يأتي أحدهم ليلقي نظرة عليك. وفي حال ازدادت الأمور سوءاً، وكان عليّ أن أحررك، سأجد طريقة لذلك...

- قاطعه كونان: لا تقلق بشأن خروجي من هنا، يمكنني أن أكسر الباب في أي وقت. كنت سأحطمه بعد ظهر اليوم، قبل أن أراكَ مباشرة. لو أنك لم تأتِ...

- أشكُرُ الرب أنني أتيت. من المستحيل الهروب من «إندستريا» بمفردك. لكن إن خططنا معاً، سيكون أمامنا فرصة. توقف الرجل المسن عن الكلام وضحك ضحكة خفيفة. آه، كم كنتُ أتمنى أن أرى ما جرى في مكتب المفوض. لابد أنك أصبحت فتى قوياً. لكن حذارِ يا بني. لا تفقد أعصابك مرة أخرى، وإلا لن ننجو أبداً.

- سأكون حذراً.

- ليس عليك أن تخاف. كن حيادياً فقط.

- حاضر سيدي.

- الوضع كالآتي: إنني أعمل في المرفأ، وأحتاج إلى مساعد آخر قوي.

- سمعت أحدهم يقول إنك تود أن تحظى بمساعد قوي.

- ضحك «تيتشر» مجدداً، بدأتُ أردد هذه العبارة منذ وقت بعيد. كنت أعرفُ أنك حي، كما كانت لانا تعرف ذلك، وكنت أعلم أن سفينة المسح ستعثر عليك في الوقت المناسب. لذلك كنت أستعد لهذه اللحظة. في حال لن يسمحوا بأن تنضم إليّ في المرفأ، لدي خطة أخرى. توقف الرجل العجوز فجأة، ثم همس، ها قد أتى المتجول. أراك ليلة الغد.

تبين أن المتجول يأتي على دراجة تصدر صوتاً حاداً، يتفحص بشكل اعتيادي الواجهة المائية. عندما اقتربت الدراجة من مسافة تكفي ليومض المتجول ضوءاً داخل الزنزانة، تمدد كونان على الأرض، متظاهراً بالنوم. كان الطعام والماء متواريين بعيداً عن الأنظار عند الزاوية.

انتهى من الطعام والشراب مع الفجر، وخبأ الكيس البلاستيكي في شق عميق في الجدار. اليوم الطويل الذي حلّ بعد ذلك كان يشبه الأول. لم يحضر له أحد أي شيء، ولم يتوقف أحد للتحدث معه. تمكن من النوم في فترة الظهيرة. عندما استيقظ كان العمال يغادرون المبنى القائم في الجهة اليسرى، ولم تكن سفينة المسح مربوطة بالرصيف البعيد. من الواضح أنها عادَتْ إلى البحر بحثاً عن الرجل الذي يقبع بالفعل سجيناً هنا.

في وقت مبكر من تلك الليلة، وقبل وقت طويل من موعد «تيتشر»، توقفت دراجتان، وصُوِّب نحوه ضوء. فوجئ عندما سمع صوت امرأة تأمره بحيادية:

- قف على قدميك أيها الموسوم. لقد أحضرنا مخصصاتك من الماء. اشرب، وأعد الزجاجة.

مُرِرَت له من الشق الأمامي القنينة، ثم ارتفع صوت آخر، لامرأة أيضاً:

- ننصحك أن تشرب الماء على مهل. ينبغي أن تكفيك الكمية مدة يومين.

على الرغم من الماء الذي شربه ليلة البارحة، بدأ العطش يعذبه مرة أخرى، ولم يكن لديه مانع من أن يُنهي القنينة. حَمَلَت المرأتان مصابيح الإضاءة، ومن الوميض المنبعث، رأى أنهما بعمر الطبيبة «مانسكي»، وكان في ملامحهما نفس القدر من البرود. تساءل فجأة عن سبب كون الجميع في هذا المكان غير السار في منتصف العمر. ألا يوجد أناس يافعون هنا؟

- ناديتني موسوماً. فيما كنت أظن أنني مواطن متدرب.

- ردت واحدة من المرأتين المسنتين: طالما أن لديك هذا الصليب فوق جبهتك، ستكون الفتى الموسوم في نظرنا. صراحة لسنا معتادين على الموسومين. فهم نادراً ما يمكن الوثوق بهم.

- شكراً. إنني متفاجئ أنكما أحضرتما الماء لي. ألا تخشيان من التحدث معي؟ الجميع هنا كذلك.

- نحن مواطنتان من الدرجة الأولى. أجابت المرأة الأخرى بحدة.

- وهذا يمنحكما الحق أن تكلماني؟

- إن ذلك يمنحنا كثيراً من الحقوق، بما فيها استخدام الدراجات.

- وبقية مخلوقات الحياة الأقل رتبة ينبغي عليها أن تمشي فقط؟

- في حال كنتَ أدنى مرتبة من الطبقة الأولى، ولم تنمُ لك أجنحة، يمكنك حينها أن تراهن على المشي.

- تجهم كونان بوجهه العابس قائلا: بما أنكما بهذه الأهمية، لماذا تؤديان مهمة الحراسة في هذا الليل؟

- لأن أمن «إندستريا» مسؤوليتنا.

- ثم أضافت الأخرى: ولا يمكننا أن نترك ذلك لمن هم أدنى منا. كثير من الأخطاء قد تقع. سلك مكسور، صمام معطوب. توقفتْ قليلاً

ثم تابعتْ: لكن لا تقلق بشأن مسؤولياتكَ. ومع كل النقاط المسجلة ضدك، ستكون أعجوبة أن تصبح مواطناً من الدرجة الثالثة.

- تدخلت الأخرى متذمرة: ينبغي ألا يحظى بفرصة. الاستقلالية شوهت رأسه. إنه سيئ بقدر سوء ذلك العجوز «باتش».

- هنا سأل كونان ببراءة: من هو «باتش»؟

- موسوم آخر يُفترض أنه غير مؤهل. لو أن الأمر بيدي...

- لكننا نحتاج إلى «باتش». من غيره يمكن أن يصنع القوارب؟ بصراحة إن جعلناه يعمل مع «باتش»، فإن ذلك سيرضي الجميع، قالت الأخرى.

- الجميع ما خلا «ريبكو». أيها الموسوم في الداخل. إن انتهيت من القنينة، أَعِدْها لنا. لا يمكننا أن نقف هنا طيلة الليل.

سُعِدَ كونان لمغادرتهما. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، عندما قصّ على «تيتشر» ما جرى، ضحكا ضحكات مكتومة.

- قال الرجل المسن: إنهما امرأتان مسنّتان. ليستا الأسوأ هنا، لكنهما تمثلان الدرجة الأولى نمطياً. إنهما حادتا الطباع.

- مما سمعته هنا، يبدو أنك تتمتع بسمعة جيدة من الصلابة.

- أجل، لقد عملتُ من أجل ذلك باهتمام. من دون هذه الصرامة، لن نستطيع الهروب.

- ما الذي تقصده؟

- إنني الموسوم الوحيد الذي يتمتع بالسلطة هنا يا بني. سنحت لي الفرصة أن أحصل على المواطنة، لكنني تمكنت من تجنب ذلك.

- لكن لماذا؟ ظننتُ أن في الجنسية نفعاً.

- على الإطلاق. كانت ستحرمني من المرفأ، خاصة في الليل. المكان بكل ما فيه، ما عدا «تيليت»، هو مكاني. حتى أنني أنام هناك.

- من يكون «تيليت»؟ مساعدك؟

- أجل، إنه يعمل من أجل الحصول على الجنسية، وسيفعل أي شيء من أجلها. لذا، لا تثق به.

- إنه من النوع الحقير، صحيح؟

- مسكين، إنه مسكين بالفعل.

- نظر كونان من الشق بالرجل العجوز: ماذا؟ لا تقل لي إنك تشفق عليه.

- لكنني أشفق عليه. الوضع هنا -الطريقة التي يعمل بها «النظام الجديد» - قد أخرج من أعماق كثير من الناس أسوأ ما فيهم. قلة من الموسومين يمكن الوثوق بهم. وأشك أن أحداً يريد الهروب، لو أُتيحت له الفرصة.

- هذا جنون، ما حال الناس؟

- صمت «تيتشر» لحظة، فيما كان يتأمل الليل منصتاً. وباطمئنان قال: أنت تنسى يا كونان ما تعرض له هؤلاء الموسومون بالتحديد. إنهم لا يملكون قدرتك على النجاة. الأناس الذين تمكنوا بطريقة ما من المجيء إلى هنا، أو أنهم أُنقِذوا وأُحضِروا إلى هنا، كانوا جياعاً. بعضهم من كثرة الهتك كانوا أشباه أموات. عندما أتيتُ إلى هنا، التقطتُ من عوامات البحر في إحدى الجزر اثنين من الناجين. المكان هنا بدا نعيماً بالنسبة إليهم. وما يزال كذلك. جرب أن تتحدث إلى أحدهم عن الهروب، سيخبرك أنه ما من مكان يذهب إليه. وهم محقون في ذلك. إلى أين سيذهب المرء من هنا؟

- مما تشكو «هاي هاربور»؟

- فيها كل العلل. فهي تقع على الركن الآخر من بحر مجهول، كما أنه من الممكن أن تكون كوكباً آخر. ضباط السفينتين الكبيرتين يعرفون، دون غيرهم، كيف يصلون إلى هناك. ما من أحد هنا يريد الذهاب إلى

هناك. لقد سمعوا الكثير عنها. الأمور سيئة هناك. وإنها مسألة وقت فقط وستصبح تحت سيطرة «إندستريا».

- لا.

- أخشى أن الأمر صحيح يا كونان. فإن ذلك على وشك الحدوث، ما لم نتمكن بأنفسنا من الوصول إلى هناك، ونجد طريقة لمنعهم.

- لكن كيف يمكننا الوصول إلى هناك؟

- أنت ستأخذنا.

- هزّ كونان برأسه، لكني لا أفهم ما تقول.

- سأشرح لك فيما بعد. ثمة أمور أخرى أكثر أهمية. «ريبكو» أقلقني. يريد أن يعتبرك غير مؤهل. وهذا يعني أن الصحراء أمامك. هل أخبرك أحد بذلك؟

- أخبرتني الطبيبة «مانسكي».

- إذن تعرف النتيجة. لدي صديق في المقرات الرئيسية، وأدعو إلى الله أن يُعلِمَني في الوقت المناسب كي أحذرك إن كان «ريبكو» ماضياً في خطته. حينها يمكنك أن تتسلل في الليل، وسأخبئك في المرفأ.

- ألن يكون ذلك خطيراً؟

- ليس لليلة واحدة أو ليلتين. أريدك هناك من أجل أن تستعد.

سأل كونان عن الطريق إلى هناك، وعلم أن بإمكانه الوصول في الظلام الدامس بمجرد أن يتجاوز الواجهة المائية بمئَتَي خطوة.

- في حال اضُطرِرت أن تخرج في وضح النهار، سنغير الخطة. هل أنت سباح جيد؟

- أجل، سيدي.

- إذن لا تتوقف عند المرفأ. استمر في السباحة نحو الساحل. قد تضطر إلى أن تقطع خمسة أو ستة أميال، أو ضعف هذه المسافة. لست

متأكداً. لقد رأيتُ المكان مرة واحدة فقط، وكنت مرهقاً حينها، لذلك تخميناتي كانت ضعيفة.

- ماذا يوجد هناك؟

- شق في الجرف. منذ أربع سنوات، عندما وصلت إلى هنا على العوامة، توقفتُ هناك حتى انقضى الليل. فيه كميات كبيرة من المياه العذبة، ويمكن لأي شخص البقاء هناك إلى أجل غير مسمى. المكان مهم بالنسبة إلينا. مهم للغاية. حتى نهرب من هنا، علينا أن نوظفه قاعدة لنا.

- لكن ينبغي أن يعرفه أحد. ماذا بشأن الأشخاص الذين أحضرتهم إلى هنا؟

- لا يذكرون شيئاً. وكانوا بعيدين عنه. كما أن أحداً لم يسلك ذلك الاتجاه قط. وعلى ما يبدو من المستحيل أن يعرفه أحد. هناك منحدرات على طول الطريق.

- لكن كيف...

- عليك أن تسبح حول أسوأ المواقع. السباح الجيد يجيد ذلك بسهولة. كما ترى، ما من أمواج عالية تقلق بشأنها. والشعاب المرجانية البعيدة عن الشاطئ تحميك. وعندما ينخفض المد، ستجد بعض الشواطئ الضيقة هنا وهناك. توقف الرجل العجوز عن الكلام، ثم أضاف بسرعة: أعتقد أن العجوزين عادتا. ثمة أمر آخر أقوله. إن لم تنجح في الهروب، واقتادك «ريبكو» إلى الصحراء، انتظر حتى يحين الظلام، واعبر الهضاب نحو المنحدرات. أراك غداً.

***

مرت الأيام. أسبوع بأكمله انقضى. عندما كان في الجزيرة، تعلم كونان الصبر، لكنه الآن يشعر أنه حيوان محبوس. لو أنه لم يعلم أن وجوده في المرفأ نافع جداً لتنفيذ خطط «تيتشر»، لخلع الباب واتجه نحو الساحل لينتظر.

في صباح اليوم العاشر، فوجِئ برؤية «ريبكو» يقترب مع الرجل الآخر الذي وسمه. فتح «ريبكو» الباب، وحملق فيه مهدداً. فجأة أوحى بإبهامه بلحظة مشؤومة.

- قف على قدميك أيها الموسوم. اخرج.

كونان الذي انهار بسرعة، وراح يتظاهر بضعف شديد، نهض على مهل وخرج. بشكل لا إرادي، تحول نظره إلى جَبهَتَي الرجلين، ورأى أن الصليبين أُزيلا. لم تفلت نظراته من «ريبكو». ملامحه الشاحبة الثقيلة كانت مشدودة بغضب مقموع. دفع كونان. ثم أمره بفظاظة، هيا!

- إلى أين تأخذني؟

لم يكلف «ريبكو» نفسه عناء الرد على سؤال كونان، إلى أن وصلوا إلى ما بدا أنه مرفأ القوارب.

- الآخرون يريدونك غير مؤهل، قال ذلك جاعلاً الكذبة تبدو حقيقية وأضاف، لكننا قررنا أن نعطيك فرصة. وهذه ليست الفرصة الوحيدة التي ستحظى بها. المرة القادمة ستكون الصحراء. رفع صوته ونادى، أين أنت يا «باتش»؟

- هيه؟ ما الأمر؟

المسن الغاضب ذو العين المتلألئة الذي ظهر فجأة عند المدخل لا يمكن أن يكون «باتش». بدا لكونان غريباً عنه تماماً، وبغيضاً للغاية.

- قال «ريبكو»: هذا المساعد الذي أرَدتَه.

- مساعد؟ هذا؟ أهذه نكتة؟

- أليس هو الفتى الذي طلبته؟

- طَلَبْتُه منذ أسبوع. إنه لا ينفعني وهو في هذه الحالة.

- أطعِمْه إذن، تمتم «ريبكو» واستدار مبتعداً عن ضراوة العين المتلألئة الباردة. إنه مسؤوليتك الآن.

عندما ابتعد الرجلان، انفجر «باتش» بخطاب تقريع غاضب عن غباء

البشر وظلم الظروف. وفي خضم فورته، استدار نحو فتى قصير بساقين مقوسين، كان واقفاً عند الباب.

- ما الذي تحدق به أيها القرد الرخو الأصابع؟ تحرك من هنا! أحضر له الملابس وحصة الطعام والماء من جائزة الطردية التي أحضراها لنا. ثم استدار فجأة إلى كونان مزمجراً: أنت أيها النتن! اقفز في الماء واستحم من القاذورات. ولا تقضِ اليوم كله وأنت تفعل ذلك. هذا مرفأ قوارب، وليس نادياً للرجال. لدينا عمل ننجزه.

بدأ كونان يرتجف من غضب «باتش»، مع أنه كان يعلم أنه محض افتعال. بدا العجوز الغاضب مختلفاً عما يمكن لـ«تيتشر» أن يكون عليه. لكنه كان ممتناً لفرصة العمل، فخلع ملابسه المتسخة وترنح نحو المرفأ متظاهراً بالضعف.

وقبل أن يصبح مستعداً للخروج، ظهر «تيليت»، المساعد ذو الأصابع الرخوة. أحضر الرجل ثياباً وقنينة ماء وطعاماً في وعاء بلاستيكي.

- يا للعجب! صرخ «تيليت» وهو يحدق بجسم كونان الهزيل بعضلاته المفتولة ثم قال: لم يخطر ببالي وأنت ترتدي ملابسك أن... هيا، أنهِ الاستحمام وارتدِ ملابسك. الرجل العجوز سيسوّد حياتنا إن تباطأت.

جفف كونان نفسه بسرعة وارتدى الملابس النظيفة. وبينما كان يأكل، حدثه «تيليت» بغضب عن «باتش».

- أكره شجاعته! إنه موسوم مثلنا. لكن هل يساعد أحداً منا؟ لا! إنه يقلل من شأننا ويسرقنا في كل مرة!

- يسرق؟ ماذا يسرق؟

- النقاط! هذا كل ما لدينا هنا. النقاط. تحتاج إلى ألف نقطة حتى تحصل على الجنسية. أتدري ما الذي فعله ذلك العجوز القذر الشهر الفائت؟ كانت لدي تسعمئة نقطة. لكن أتعتقد أنه يعطيني فرصة، ويقدم عني تقريراً جيداً حتى أحصل على المزيد؟ لا! لقد قلل من شأن عملي،

وجعلني أخسر ثلاثين نقطة. كل ذلك لأنني أخطأت في بعض الأمور، وأفسدت قطعاً من البلاستيك.

– لكن كيف استطاع الحصول على كل هذا النفوذ وهو موسوم؟

– لأن العجوز الشرير يصنع القوارب.

– اكفهر وجه كونان، فمن الصعب عليه أن يرتبط اسم «برياك روا» بالأمور البحرية هنا، ثم أضاف قائلاً: ولكن لابد أن هناك العديد ممن يعرفون صناعة شيء بسيط كالقارب.

– بصق «تيليت» ثم حملق بريبة بالمرفأ. تقول هذا في مدينة مليئة بعمال المختبرات؟ هذا المكان لم يكن له وجود قبل التغيير. كانت هناك قناة تصب في الساحل، لكن ذلك لم يساهم في جعلهم يحترفون صناعة القوارب. من المؤكد أن بعضاً منهم فكروا في صنع قارب. وقد رأى العجوز «باتش» ما كانوا يفعلونه، وقال لهم إن القارب سيتحطم حالما ينزل إلى الماء. سخروا منه قائلين: أيظن نفسه «برياك روا»؟ حسناً، وبالفعل تحطم القارب لاحقاً. وغرق خمسة رجال. فاستطاع «باتش» الحصول على فرصته. وهو يدير المرفأ منذ ذلك الحين. بصق «تيليت» مجدداً وتابع كلامه: صنع القارب ليس أمراً سهلاً، حتى أبسط الأنواع منها. هذا ما خدعني. عندما غضب مني المفوض، وسلمني إلى «باتش»، ظننت أنني ذكي، وسأتعلم صنع القوارب، وأصبح في القمة. لكن هذا لم يحدث. لم أرَ في حياتي أمراً بهذه الغاية من التعقيد. إنني مستعد أن أضحي بروحي لأخرج من هذا المكان.

– تقصد أنك تود أن تهرب؟

– حدّق به «تيليت». أهرب من أين؟ قصدتُ أن أخرج من المرفأ.

– لكن ألا تود أن تغادر «إندستريا»؟

– ماذا؟ هل أنت معتوه؟ لماذا أكون غبياً وأهرب من «إندستريا»؟

– ألا تمانع أنك تكون عبداً؟

- بالتأكيد أمانع. لكن لو أنني أنتبه إلى مجموع نقاطي، سأصبح مواطناً من الدرجة الثالثة قريباً. حينها سأكون في طريقي للوصول إلى المرتبة الأولى. عندما تكون مواطناً صالحاً، ستجد أن هذه المدينة رائعة. تحصل على كل أنواع الامتيازات. لكن عليك أن تتعلم أصول اللعب، وأن تلعب بخفة مع الطبقة الأولى. لو أن العجوز «باتش» فعل ذلك، لكان الآن مواطناً من الدرجة الثانية على الأقل. لكنه غريب الطباع ومغفل، ولا يهتم بما يقول للآخرين. وهو يخسر النقاط بدلاً من كسبها. سمعت أن معدله تجاوز ثلاثة آلاف نقطة. أيمكن التغلب على ذلك؟ لقد تحول الأمر إلى نكتة الآن، وهو مجنون لأنه لا يعطي بالاً لذلك. ومع هذا...

قاطع حديثهما صوت صراخ قادم من المرفأ وشجار بالكلمات، جعلهما يثبان على أقدامهما كدميتَين على الحبل.

- تعال إلى هنا، وابدأ العمل أيها النتن عديم القيمة. لقد قضيتَ عطلة طويلة. بانتظارك قارب تصنعه.

تبين أن السفينة كانت سفينة صيد من البلاستيك والمعدن، بطول خمسين قدماً تقريباً، وقوس مرتفع مخصص للطقس السيئ، وسطح عريض من أجل الشبكات. كان إطارها القوي المغطى جزئياً بأغطية من البلاستيك السميك، يملأ تقريباً السقيفة الرئيسية، ويفسح مجالاً صغيراً في نهايته للعديد من القوارب الصغيرة المصنوعة في الفترة نفسها.

كُلّف كونان بمساعدة «تيليت» على تثبيت وربط الصفيحات البلاستيكية بالإطار المصنوع من بلاستيك أكثر سماكة مدّعم بالألمينيوم.

بينما كان «تيليت» يثبّت بَدَن السفينة بسائل لاصق، حدّثه قائلاً: ليس لدينا فولاذ هنا. فقط القليل من الألمينيوم، وعلينا أن نجعله ممدداً. سنستخدم معظم الكمية من أجل المحركات.

- كم من الوقت يستغرق صنع قارب بهذا الحجم؟ سأل كونان، وخمّن فوراً أن هذا هو القارب الذي ينوي «تيتشر» أن يستخدمه من أجل الهروب. من نظرة واحدة عرف أن القوارب الصغيرة لا تفي بالغرض.

وحدها سفينة صيد كبيرة ومتينة كهذه يمكن أن تعبر بهما المياه الهائجة التي كان يراقبها طيلة خمس سنوات.

- أجاب «تيليت»: لا أعرف، إننا نقوم بهذا العمل منذ ستة أشهر. وحتى من دون مساعدتك، سنحتاج إلى ستة أشهر أخرى قبل أن نشغلها. في حال أصبح المحرك جاهزاً.

- المحرك؟

- أجل، ينبغي أن يصنعوا محركاً. سيكون من هذا النموذج. يريد «باتش» أن يجربه على ذلك القارب الصغير ليتأكد من جهوزيته.

نظر كونان، وقد اجتاحه إحساس بالغرق المفاجئ، إلى زاوية المرفأ حيث كان «باتش» مشغولاً بتدعيم مؤخرة أحد القوارب. هل سيكون مضطراً أن يمضي ستة أشهر هنا، وأن يعمل حتى تُنجَز السفينة، قبل أن تتاح له أي فرصة للهرب، أم أن «تيتشر» يخطط لأمر آخر؟

رن الجرس بحلول الشفق، وذهب برفقة «تيليت» إلى كشك يقدم طعاماً محلياً. وقّع على بطاقة تموينية سبق أن استخدمها من أجل وجبة سابقة، وأخذ عشاءً معلباً. أكلا عند حوض القارب أمام المرفأ.

- قال له «تيليت»: ينبغي أن تكون مواطناً من الدرجة الثالثة حتى تدخل إلى مطعم فيه طاولات. أنا متأكد من أنك سئمت من كونك موسوماً. نقضي ساعات أطول، وننجز معظم الأعمال، ولا نحصل على أي ميزة. مئة وثلاثون نقطة هو كل ما أحتاج إليه حتى أتخلص من الصليب على جبهتي. لكنها ستكون من أصعب النقاط التي كسبتها.

- لكن كيف تحصل على النقاط؟ هل عليك أن تقوم بكثير من الأعمال، ولا ترتكب أي خطأ؟

- بصق «تيليت» وضاقت عيناه. لا تتغابَ! ستظل موسوماً طيلة حياتك إن لم تراوغ. وكما أخبرتك سابقاً، عليك أن تتودد إلى الأشخاص المناسبين، وأن تعرف ما يريدون، وتخبرهم بذلك، فهمت؟

- تقصد أن أصير مُخبراً؟

- لا أحب هذه الكلمة. لكن في مكان كهذا. كل إنسان يعمل لنفسه. في حال رأيتك تنام أثناء العمل، أو تسرق، سيكون غباءً مني ألا أبلّغ عنك. والأمر كذلك عند الجميع.

- رد كونان بجدية: أفضّل أن أتمرد على أن أكون مُخبراً. ما بال جميع الأسرى هنا؟ أليس عددهم كافياً حتى يقاتلوا من أجل حقوقهم؟

- أنت لا تفهم. لا يمكنك أن تقاوم التنظيم.

- لم لا؟ من يمنعك؟ لا توجد شرطة هنا.

- الجميع هنا بمنزلة رجال الشرطة. فهمت؟ نحن الموسومين موزعون في كل مكان في أرجاء منطقة المصنع. وما من فرصة تسمح بالتجمعات والتخطيط لأي شيء من دون الإبلاغ عنه.

- لكن ماذا عن الليل؟ أين تنامون؟

- في المستودع المحلي. اثنان في كل زنزانة.

- زنزانة؟ تقصد أنكم محتجزون؟

- لسنا محتجزين، لكن ربما نكون ذلك. لا يُسمح للموسوم بالتجول بعد أن يرن الجرس الأخير. وإن كُشِف أمرنا، نكون في ورطة. في كل مستودع تجد مواطناً ثانياً يتولى المناوبة، وإن لم ننتبه لتصرفاتنا، نقع في ورطة مجدداً. الجميع يسعون للحصول على النقاط، وهذا يعني أن الكل يراقب الكل. لذا، عندما تتكرر الأخطاء، نصبح غير مؤهلين. فهمت الآن؟

- فهمت. رد كونان بتمهل.

- إذن راقب تصرفاتك. وتضرع إلى الله ألا يبقيك «باتش» العجوز ليلاً في المرفأ.

- ماذا؟ هل يفعل ذلك؟

- فعل ذلك معي. إلى أن تعلمت التودد إلى الأشخاص المناسبين. كان يبقيني صاحياً نصف الليل، ويأمرني أن أفعل هذا وذلك حتى

أوشكت على أن أقتله. يا إلهي! كم كنتُ سعيداً بالعودة إلى المستودع وأن أنال قسطاً من النوم!

صوت الجرس المفاجئ جعلهما يعودان إلى العمل مجدداً.

الشفق الطويل ازداد قتامة. كان الظلام قد أوشك أن يحلّ عندما رن الجرس التالي. وضع «تيليت» الأدوات جانباً وتحدث إلى كونان متعباً.

– دعنا نذهب. هناك سرير لك حيث أنام.

– أوقفهما «باتش» العجوز قائلاً: لا، ستنام هنا على الأرض حتى تتعلم الفرق بين الوتد وقوس السفينة، أتسمعني؟

– أجل سيدي، رد كونان بتردد، ثم تمدد على الأرض متذرعاً بالإرهاق التام. حالما ابتعد «تيليت» عن ناظريهما، ضحك «باتش» ضحكة مكتومة وقال بصوت «تيتشر»: في بعض الأحيان، أكره نفسي. كم أنا عجوز شرير مزعج!

– أنت كذلك بالتأكيد يا سيدي. لكنني أدرك السبب الآن.

– حسناً، علينا أن نعمل. هل أنت مرهق كما يبدو عليك؟

– بالتأكيد لا! يمكنني أن أعمل طيلة الليل.

– رائع! ربما ستُضطر للعمل. إن تمكنا من الاستعداد الليلة، سنغادر هذا المكان غداً.

– استوى كونان واقفاً، غطت الدهشة وجهه. أنت... كيف... لكنني ظننت أن بناء السفينة سيستغرق أشهراً...

– يا إلهي يا بني! السفينة لن تُنجَزَ أبداً. علينا أن نبحر. الرجل العجوز الواقف أمامك سحب واحداً من القوارب الصغيرة التي كان يعمل عليها، ووضعه مع قارب آخر في زاوية المرفأ المتروكة. اسحب هذا إلى هنا.

– فعل كونان ما طُلِبَ منه. مع أنه عملياً لم يكن يعرف شيئاً عن القوارب، وكان من الواضح أن القارب الصغير لن ينفع للقيام برحلة بحرية حتى لشخص واحد. نظر كونان إلى «باتش» محتاراً.

- قال له الرجل العجوز بصيغة الأمر: اقلبه. ضع القاربين معاً من نهايتهما.

ربط كونان القاربين، ثم رجع إلى الوراء، ونظر إليهما. لفظ أنفاسه. لقد اختفى القارب الصغير. وبدا أنه في الضوء الخافت يتطلع إلى بَدَنٍ واحد، مدبب من النهايتين، بخطوط طويلة تتدلى من القارب البحري.

- همس كونان: لماذا؟ لا أصدق ذلك! كيف فعلتها؟ أقصد، لم أكن أعرف...

- أنني أصنع القوارب؟ إنها حبي الأول. ذهب «تيتشر» باتجاه الباب، أنصت لحظة، ثم قال: كانت الخدعة أن أُنجز ما نحتاج إليه، وأن أبنيه من دون أن يدرك أحد ما كنا نفعله. وكان هذا الحل الوحيد. سيحتاج إلى عارضة أو بديل عنها، لكننا سنتدبر ذلك في المكان الذي أخبرتك بشأنه. الآن، الخطة هي كالتالي...

أوضح «باتش» العجوز أنه في ليلة الغد سيحملان القاربين المُحمَّلَين بالمعدات اللازمة، وينصبان محرك السفينة ليعبرا إلى الساحل ويستريحا في الجرف. هناك سيلتصق القاربان بشكل دائم، ويبحران في عرض البحر على الفور.

- ثم أضاف «تيتشر»، لكن أولاً تلزمنا بعض الأغراض. ومن أجل الحصول عليها نحتاج إلى القوة. علينا أن نقتحم البناء ونسرق.

6- الخطر

إنهما بحاجة إلى الخبز المعبأ والأطعمة الأخرى التي من شأنها أن تُحفَظَ إلى أجل غير مسمى، إضافة إلى الملابس ولفافة من البلاستيك. ولكي يقتحما المستودع حيث تُحفَظ اللوازم، قررا الانتظار حتى منتصف الليل. بحلول ذلك الوقت، يكون الحراس المتجولون قد أنهوا جولاتهم المبكرة، ويكون الوضع أكثر أماناً.

عندما خيّم الليل المظلم، خرج «تيتشر» إلى حوض القارب ليطلب من «مزال» أن تأتي إلى «هاي هاربور». تدثر كونان بالبطانية في زاوية المرفأ، وحاول أن يستريح قليلاً. كان متعباً أكثر مما أفصح عنه، لكن النوم بدا عصياً عليه في تلك اللحظة. بدأ خوف مجهول يقض عليه مضجعه. وقد عزا ذلك إلى المخاطر التي تنتظره، وحاول أن ينتزعها من رأسه.

كيف هي منطقة «هاي هاربور»؟ وبينما كان يحاول أن يتخيل ما فعله التغيير بهذا المكان، تمنى لو أنه يحظى بقليل من قدرة «تيتشر» على التواصل. لو أنه أتقن هو ولانا الطريقة التي أتقنتها «مزال» -لكن في تلك الأيام، عندما اندلعت الحرب فجأة، لم يكن هنالك متسع من الوقت. في الحال، عندما طرقت صورة لانا مخيلته، شعر برغبة ساحقة أن يراها كما هي عليه الآن، أيمكنه ذلك؟

لو أنه يحيل كل أفكاره للتفكير بها، لاستطاع أن يزيل المسافة بينهما، وأن يتدبر بطريقة ما رؤيتها، حتى إن لم يكلما بعضهما.

***

في اللحظة التي كان كونان يفكر بها، كانت لانا تنتظر في الكوخ بفارغ الصبر عودة «مزال» من البرج. هنا، على الجانب الآخر من البحر، بعيداً جداً إلى جهة الغرب، كان الوقت ما يزال نهاراً، مع أن البرد المسائي كان يزحف من المرتفعات. ارتجفت لانا وأغلقت الباب المفتوح جزئياً. لاح أمامها في تلك اللحظة بلمحة مقتضبة مذهلة طيف كونان، ليس كما رأته آخر مرة، بل كان كما عرفت أنه سيكون الآن، أكبر سناً وأقوى بنية. حتى أنها رأت الصليب على جبينه.

لو أنها كانت تدرك ما يجري، وتمكنت من أن تُقصي من رأسها كل الأفكار، لتمكنت من رؤيته للمرة الأولى. ولكنّ ثمة أموراً أخرى تطلبت منها انتباهاً.

كانت في بادئ الأمر مشدوهة لسماع نعيق غراب «جيمسي» قادم من المنحدر خلف الكوخ. كان «جيمسي» غائباً عن دروسها الصباحية، ولم تره منذ أن استعادت الفأس. أن تسمع نداءه لها الآن، في وقت متأخر من النهار، كان أمراً مزعجاً. بالطبع، ليس هناك سبب يمنعه من التواصل معها في أي وقت، عندما يريد ان يخبرها بأمر هام.

سمعتْ إشارة «جيمسي» مجدداً، فأدركت أن الأمر مُلح للغاية. ما الذي حدث يا تُرى؟

فتحت الباب، ونظرت نحو البرج على أمل أن ترى «مزال» عائدة إلى الكوخ. كانت مترددة وممزقة بين إلحاح «جيمسي»، وقلقها على كونان وجدها. البارحة «تيتشر» أخبر مزال أن ساعة الهروب قد اقتربت، ويمكن أن تحين في غضون يوم أو يومين. وربما تحين الآن... فجأة هزت رأسها، أغلقت الباب مجدداً، أمسكت رداءها، وخرجت في عتمة الكوخ كطيف شاحب.

أوقفتها عند المدخل الأمامي دعسات تتقدم في الرواق، ابتعدت لانا جانباً بينما كان الباب يُفتح. دخل «شان». قال لها في محاولة يائسة منه لتلطيف الجو: ذاهبة إلى حفلة راقصة في هذا الوقت المبكر؟

- للحظة كانت عاجزة عن الرد، لقد... ناداني «جيمسي». أخشى أن أمراً ما قد حدث. ثم رأت القلق على وجهه، وتذكرت أنه خرج منذ الفجر. ما... ما الأمر يا «شان»؟

- أَغْلَقَ الباب، واتكأ عليه مطبقاً عينيه، وحدّثها بهدوء: جرثومة. لقد تفشت جرثومة في الجهة المقابلة من الميناء. وإلى الآن يعاني منها ستة من اليافعين. ولا يسعني فعل شيء حيال الأمر.

انفرجت عيناها إيذاناً بإنذار سريع. هذا ما كان يخشاه «شان» المسكين طيلة السنوات الخمس. وإلى الآن الحظ يرافقهم، فلم يسبق أن ظهر هنا مرض خطير ومعدٍ. لكن الآن...

- تظن أن الوضع خطير؟

- أجل، الجرثومة من نمط جديد، على الأقل بالنسبة إليّ. أعتقد أن سفينة المقايضة هي السبب. من المحتمل أن طاقمها محصن من العدوى. لكن اليافعين أُصيبوا بها ليلة البارحة، وثلاثة منهم فقدوا الوعي. هل رأيتِ «دايس»؟

- هزت لانا رأسها بالنفي. المفوض لم يأتِ إلى هنا منذ يومين.

- أريد أن أراه. قال «شان» وأضاف. إنه ليس طبيباً، لكنه يعرف بعض الأدوية، ولديه كثير منها على سطح السفينة. ربما بإمكانه مساعدتنا.

- ربما «جيمسي» يخبرنا عن مكانه. سأسأله.

لَبِسَتْ عباءتها وخرجتْ مسرعة. توقفتْ بالقرب من المكتب، على مسافة بعيدة تمكنها من التأكد أن أحداً لا يراقبها، ثم دلفت إلى الغابة نحو الصنوبر الملتوي في أعلى المنحدر.

كان «جيمسي» يستند إلى الشجرة. بدا جسده الهزيل في الضوء الخافت كأنه جزء من الأشجار المحيطة به. وكانت خصلة من شعره الأحمر المنفوش قد برزت وحيدة في الظل. وبينما كان يقف متألماً، رأت الجهة اليسرى من وجهه مصابة بكدمات وتورم شديد. وكانت عينه مغلقة تقريباً.

- صاحت: هل كنت في شجار يا «جيمسي»؟
- أوه، انسي الأمر. أنا بخير.
- لكنك مصاب! يستحسن أن تأتي معي وترى الطبيب.
- لا! قلتُ إنني على ما يرام، صحيح؟ ثم توقفَ قليلاً عن الكلام، وارتفعتْ عيناه القاسيتان نحوها. سمعتِ عن الاجتماع؟
- أي اجتماع؟
- إذن لم تسمعي به. سيُعقد غداً في مثل هذا الوقت، وفي ذلك المكان عند نهاية الطريق. «أورلو» وراء الموضوع.

خوف جديد، أكثر حدة من غيره، تسلل إليها. ذلك المكان عند نهاية الطريق، يقع على الجانب الآخر من التلال، حيث الطريق السريع القديم عديم الفائدة منذ التغيير، مسبباً تقوساً فيما كان يُعرَف في السابق بحديقة على جانب الطريق. كان المكان أقرب نقطة عريضة مفتوحة، وكان الأولاد يتجمعون هناك للعب وتبادل الحكايات.

- ماذا تحاول أن تقول لي يا «جيمسي»؟
- حسناً، كثير من الفتيان لا تعجبهم الطريقة التي يقمعهم بها الطبيب. أقصد الفتيان والفتيات يريدون الحصول على أشياء يعتقد الطبيب أنها غير ضرورية، فهمتِ؟ مثل الدراجات وصناديق الموسيقى التي تحضرها سفينة المقايضة...
- لكننا يا «جيمسي» نحتاج بشدة إلى أغراض أخرى غير هذه. ألا تدرك أنه...
- لست أنا من يريد هذه الأغـراض. ما حاجتي إلى صندوق الموسيقى؟ بكل الأحوال سيأخذه مني واحد من القذرين. وسيستولي «أورلو» على كل شيء في النهاية. إنه يريد أن يأخذ كل شيء.
- ماذا؟
- يريد أن يتخلص من الطبيب ويصبح الزعيم هنا.

لم تستطع لانا إلا أن تحدق به مصدومة.

- تمتم الصبي. ليس هذا كل شيء. «أورلو» يضمر لك نية سيئة. لقد رأيتُ ما حدث عندما استعدتِ منه الفأس.

- كنتَ... كنتَ تراقبني؟

- أجل، عرفتُ أنه سيكون لئيماً، فهيأتُ نفسي أن أظهر في الوقت المناسب. لكنكِ أفلتِ منه بسلام. توقف ثم قال فجأة: أنت متأكدة من أن أحداً لم يركِ تأتين لرؤيتي هنا؟

- «جيمسي» أنا حذرة دائماً. الطبيب هو الشخص الوحيد الذي يعرف أنني أتيت لرؤيتك. كان عليّ أن أخبره لأن...

- أوه، كان على حق. أعتقد أن «أورلو» خمّن بشكل جيد.

- بشأن ماذا؟ «أورلو» هو الذي ضربك يا «جيمسي»؟

- رد «جيمسي» ببرود: غير مهم!

- إذن إنه «أورلو». وبرأيي الأمر مهم. ذلك الحيوان القذر! أطبقت يديها وقد اجتاحها غضب مفاجئ. ضربك لأنه يظن أنك أخبرتني بشأن الفأس!

- تجاهل «جيمسي» انفعالها وقال: قلت لك الأمر غير مهم. بكل الأحوال، لن أنسى ما حدث. وسأسوي الأمر بنفسي. ثم استدار وتابع كلامه، أتمنى أن تمطر غداً.

- من المؤكد أنه من غير الجيد أن يأتي ذلك اللص إلى هنا ويستولي على كل شيء.

- انتظر يا «جيمسي»! علينا أن نعثر على المفوض. الأمر في غاية الأهمية. هل رأيته في مكان ما؟

- أجل، لقد رأيته. ثم ازدادت ملامح «جيمسي» المتصلبة كآبة وقال: كان برفقة «أورلو» طيلة اليوم.

- «أورلو»!

- أجل، كانا معاً. أعتقد أنهما يعقدان اتفاقية. كما أن المفوض سيحضر اجتماع الغد.

- أوه، لا!

- هذا ما سمعته. أعتقد أنهما على متن سفينة المقايضة الآن.

- أسكتتها الصدمة مجدداً. بالكاد أدركت أن «جيمسي» قد غادر. عندما استدارت وهي تقاوم شعوراً متفاقماً من الخوف، كانت قد نسيت لفترة مؤقتة العدو المتربص خلف اليابسة، ولم تستطع أن تُخفِض عينيها في الوقت المناسب. وبصورة مفاجئة، رأته في الاتساع المُتَوّعِد بالخطر-البحر الكبير القاتم الذي ابتلع القارات وأغرق الماضي، البحر المميت الذي بدا لولبياً وينتظر. كان العدو جاثماً في الظل الباقي لبقعة وحيدة من ضوء منعكس أشرق عليها من الأفق كأنه عين وحش.

هاجمته بصراخها، وكانت ستجزع لو أن «تيكي» الذي كان يحوم فوق رأسها يراقبها، لم ينخفض نحوها متمسكاً بذراعها. حمداً لله أنها أمسكت الطائر، وتلاشت عبر الشفق.

***

في زاوية مرفأ القوارب، استيقظ كونان فجأة وهو يشعر بضغط يد على كتفه. جاءه صوت «تيتشر» هادئاً في الظلام.

- حان الوقت يا بني، علينا أن نعمل بسرعة.

سحب كونان البطانية جانباً، ووقف على قدميه مستعداً على الفور. فوجِئ أنه استطاع النوم، لأنه كان يظن أن بضع ثوانٍ فقط قد مرت منذ أن بدأ يفكر بـ«لانا» و«هاي هاربور». تذكّر ما بذله من جهد، وشعر باليأس. فهو لن يجيد التواصل أبداً. وقبل أن يسأل «تيتشر» إن أبلغت «مزال» الرسالة إلى لانا، صوّب الرجل العجوز ضوء مصباح يدوي إلى عينيه وقال:

- اتبعني يا بني. لا تشعل الضوء إلا عند الضرورة، وصَوبْه نحو الأرض فقط لترى مكاني.

- أليس من الأفضل أن تحمله بما أنك ستتولى القيادة؟

- لا، هذا لن يساعدنا. أنا أعمى عملياً.

- ماذا؟

- ضحك «تيتشر» بهدوء. لطالما كنت أعمى. ظننتك تعرف. حدث ذلك مذ كنتُ صبياً صغيراً أعبثُ بالمواد الكيميائية. من دون النظارات- لقد فقدتها ليلة التغيير- يمكنني أن أتدبر أمري بما يكفي لأن أرسم خطط القارب. وقد جعل ذلك التخفي أمراً بسيطاً. حتى من دون لحية، ومن دون نظارات، ووضع رقعة فوق عينه، من سيتعرف عليّ بهذا الشكل؟

- لقد خدعتني بالتأكيد. لكن حباً بالله كيف تعثر على طريقك؟

- في الظلام؟ أمر سهل. لدي حواس أخرى. دعنا نذهب الآن.

بينما كان يتبع خطوات قائده السريعة في الظلام الشديد، بدأ كونان لأول مرة في حياته، ينظر إلى «تيتشر»، كما كان العالم كله يشعر نحوه، بشيء من الرهبة. وإن «برياك روا»، ذلك العجوز الهزيل الطويل القامة، أعظم رجل في الحقبة، لم يكن يعني له شيئاً على الإطلاق. لطالما كان ينظر إليه على أنه «تيتشر»، الصديق الودود. وليس الأمر أنه أدرك الآن أنه العبقري الذي صنع كثيراً من العجائب فأثار خشيته. بل كانت الحقيقة البسيطة الواضحة على حد سواء، أن الرجل الأعمى تقريباً، قد احترف بطريقة ما، أن يرى في الظلام.

كيف فعل هذا؟

على الفور، وهو يستعيد ذاكرة الماضي، تذكر كونان ما حدث في إحدى الليالي منذ زمن مضى، عندما كان «تيتشر» يحاول تطوير قدرة «مزال» على التواصل. قال لها حينها:

- عليكِ أن تتعلمي التصور، فهمتِ؟ عندما تتحدثين معي من مسافة بعيدة، عليكِ أن تفكري بي. فكري بي باهتمام شديد كأنك تريني أمامكِ.

- لكن هذا مستحيل يا والدي.

- كلام فارغ! إنني أراكِ دائماً، مهما تكن المسافة بينا. يمكنك أن تتعلمي القيام بما أفعله أنا.

– عارضت «مزال» كلامه. لكني لا أصدق هذا. أنت لديك قدرة عالية أكثر...

– كلام فارغ مجدداً. كان عليّ بدلاً من أن أعلّم الآخرين أن أطور قدراتك مبكراً. حالك كحال الآخرين، أنت لم تتعلمي استخدام عقلكِ. لقد تعلمتِ ألا تستخدميه.

– عندها أومأت «مزال» رأسها بيأس. لكن «تيتشر» لم يتوقف أبداً وقال: لقد تعلّمتِ ألا تستخدميه بإقناعكِ أن ثمة أموراً من المستحيل تحقيقها. أنت متأكدة، على سبيل المثال، أنه من المستحيل على رجل أعمى أن يرى. ومع ذلك أستطيع أن أرى. حالما يتعلم المرء تصور...

– أبي!

ما كان يفعله «تيتشر» منذ سنوات مضت، ليس إثبات الفكرة فقط، بل إثبات حقيقة عظيمة أيضاً. في تلك اللحظة، كان الأمر بالنسبة إلى كونان بمنزلة فتح باب سحري.

بعد توقف قصير، قاده الرجل العجوز عبر الأزقة الجهنمية والأبنية السوداء التي تفوح منها رائحة الكيمائيات وغيرها من المواد الأخرى التي تتوهج بأضواء غريبة. توقفا أخيراً عند نهاية بناء خال من النوافذ مصنوع من صفيحات طويلة من البلاستيك الثقيل.

وقف «تيتشر» قليلاً ينصت. وبسرعة بسط حزمة كان قد أخرجها، وأعطى كونان قضيباً معدنياً قصيراً. بعد أن قرع بأصابع يده على العديد من الصفيحات.

– همس: سنحاول هنا. اسحب الأربطة السفلية، ثم قوّس الصفيحة جانباً. على مهلك.

نفذ كونان ما طُلِبَ منه بعناية. بدأ الآن يشعر بذلك الخوف المجهول الذي اجتاحه سابقاً وقد عاد بدفق أقوى. كان يشعر بخطب ما، خطب كبير. لكن ما هو؟

كان الدخول إلى المبنى أبسط مما كان يعتقد. تبعه «تيتشر» وقسّم الحزمة

التي تبين أنها مكونة من عدة أكياس بلاستيكية ضخمة. وجدا غايتهما من دون عقبات، ملآ الأكياس، وعادا من حيث دخلا. كان حِمْلُ كونان أكبر حجماً مما يحمله «تيتشر»، وكان مضطراً أن يزيل بعض الأغراض الثقيلة من أحد الأكياس قبل أن يمرره من المدخل. فعل هذا، وبينما كان يستبدل المستلزمات التي أخرجها، رأى «تيتشر» ممدداً على الأرض على بعد أمتار قليلة منه. بدا أن الرجل العجوز كان يتفحص أمراً ما.

- ما الأمر؟ همس كونان.

- لست متأكداً. قد يكون أمراً مهماً.

صوّب كونان الضوء على الأرضية، ورأى شقاً طويلاً حيث كان الإسمنت قد انكشط عنه. لماذا يهتم لأمر الشق؟ الجميع كانوا عند الواجهة المائية. لكن من المؤكد أن هنالك خطباً ما، جعل «تيتشر» يسلك طريقاً مختلفاً عند العودة إلى المرفأ، وكان يتوقف كل بضع ياردات ليتفحص الإسفلت. حتى أنه لم يشأ أن يتحدث بالأمر لاحقاً. تحدث إلى كونان وهما يخفيان الأكياس في المخزن المجاور.

- نم قليلاً يا بني. أخشى أن غداً سيكون يوماً صعباً.

***

كان يوماً سيئاً منذ البداية، وبدا لكونان أنه لن ينتهي أبداً. استيقظ وهو يشعر بالخوف المجهول الذي تملّكه الليلة الماضية، وظل يرافقه، وتزداد شدته مع مرور الوقت. لم يكن هنالك شك أن «تيتشر» الذي تحوّل بمجيء «تيليت» إلى باتش الانفعالي، كان قلقاً في أعماقه من حدوث شيء ما. قضى الرجل العجوز معظم وقته جالساً إلى طاولة الرسم في المخزن، يكتب معادلات طويلة على قصاصات رقيقة من البلاستيك سخرّها قطعاً من الورق.

- أحس «تيليت» بالاختلاف الغريب، وكان قد ذهب مباشرة إلى المخزن وتمتم. ما الذي حدث له؟ هل ابتلع لسانه؟

- أتمنى لو أنني أعرف! رد كونان بحماس.

لاحقاً بعد ظهيرة ذلك اليوم، أمرهما «تيليت» بتجهيز أحد القاربين الصغيرين لاختبار المحرك النموذج. وضعا المحرك في المكان المخصص له في مقصورة مؤخرة القارب، وثبتاه في مكانه، ودحرجا القارب إلى الحوض. عندما طفا القارب على السطح، غضب «باتش» مما رآه، وجعلهما يضعان كمية من الأغراض الثقيلة. تبين لكونان أن هذه الأغراض مثل البطاريات الاحتياطية وصندوق الأدوات وعلب الإسمنت، سيحتاجونها فيما بعد لتثبيت هيكل السفينة.

- صاح العجوز: هذا الاختبار من أجل قارب عمل. ضعا مزيداً من الأغراض الثقيلة. ينبغي على المحرك أن يتعامل مع الحمولة. وبينما تنجزان ذلك، أحضرا القارب الآخر إلى هنا، واختبراه بحبل القَطْر.

عندما رن الجرس الأخير بحلول الغسق، كان كونان لا يزال في الحوض، حيث أنهى أول درس له في الملاحة البحرية. القاربان محملان جزئياً بالحمولة، ينقصهما قبل الانطلاق، كيسا المستلزمات وبعض الأغراض الضرورية. وفي هذا الوقت، كان قلق كونان قد بلغ حداً لم يعد يستطيع احتماله.

- ما الأمر؟ تحدث إلى باتش حالما غادر «تيليت» إلى المستودع.

- أجاب «تيتشر» بهدوء: الجيولوجيا. لقد أفسدَتْ علينا الأمور.

- لكنني لا... قلتَ الجيولوجيا؟

- أجل، التغيير تسبب بضرر بالغ في قشرة الأرض. لقد تكسرت القشرة على مساحة كبيرة في هذه المنطقة، وسحقت معها جزءاً من «إندستريا». لكنها خلّفت الشقوق. ثمة شق كبير تحتنا، وقد اكتشفتُه عندما أتيتُ إلى هنا. إن الضغط فوقه في ازدياد. وأخشى مما رأيتُ الليلة الماضية أنه بلغ مرحلة متطورة.

- للحظة لم يستطع كونان إلا أن يفتح فمه مندهشاً: تقصد أنه سيحدث زلزال أو ما شابه؟

- تنهد «تيتشر» قائلاً: بني، أقصد أن نصف المدينة الباقية ستنشطر وتنزلق في البحر.

- أنت... أنت متأكد؟

في اللحظة التي تكلم فيها، أدرك أنه كان يوجّه سؤاله إلى الرجل الذي تنبأ بحدوث التغيير. كان حينها يسأل «برياك روا»، الذي أخبر العالم ما سيحدث بالضبط في حال استُخدِمَت القوة المغناطيسية سلاحاً. لم يشأ القادة أن يصدقوه. قالوا إن عليهم أن يوظفوا القوة المغناطيسية لتنشطر حقول القوة فوق المدن. فتَخَلْخَلَ الكوكب من المحور، وتلاشى القادة في أعماق البحار.

- أنا... أنا آسف سيدي. لم أقصد أن...

- لا بأس يا بني. إنني متأكد أن المعجزة وحدها يمكن أن تمنع حدوث ذلك. ومن الممكن أن يحدث الانزلاق في أي وقت، لكن من الصعب تحديد التوقيت بدقة في حال لم تتوفر الأدوات المناسبة لذلك.

هزّ الرجل العجوز رأسه ثم أضاف: إنه فخ رهيب، حدوثه مؤكد ومن دون إنذار. ينبغي على الناس أن يتنبهوا إلى ذلك.

- كانت كتلة من البرود تتجمع في معدة كونان. فجأة قال: لماذا لا نترك رسالة لـ«تيليت» وهو بدوره يبلغها للمقرات الرئيسية؟ إن حَبَكْتَها بدقة...

- أتعتقد أنه من الممكن إبلاغ رسالة كهذه؟

- لم لا؟

- لا أحد هنا يفهم أموراً كهذه. كما أن الجميع يظنونني «باتش». وفي حال استخدمت اسمي القديم، سيقولون إن «باتش» جُنّ جنونه.

- رد كونان. لنفترض أنهم فعلوا ذلك. ماذا يمكننا أن نفعل؟ نحن بالتأكيد لا ندين لهم بشيء!

- بل إننا ندين لهم بشيء.

- ما هو؟ ندين بوسمهم لنا؟ على الفور تصلبت قبضتا كونان.

- أومأ «تيتشر» برأسه: الإنسان يدين لأخيه الإنسان بمدّ يد المساعدة وقت الشدائد. إنهم في خطر حقيقي هنا.

- إذن دعهم يغرقون في الخطر. لماذا علينا أن نساعد «النظام الجديد»؟ انظر ما فعلوه بنا! برأيي، دعهم يغرقون. سيكون العالم أفضل إن ماتوا جميعاً. إنهم حفنة من القذرين...

- اسمعني يا كونان.

- نعم سيدي. اشتدت البرودة في أحشائه. كان بإمكانه أن يخمّن ما هو آتٍ، ومجرد التفكير بالأمر أشعره بالرهبة. كان الظلام ينسدل، وفي غضون دقائق، سيصبح الوضع آمناً للانتهاء من تحميل المستلزمات في القاربين. لو أن بإمكانه أن يفكر بطريقة ما لإبعاد «تيتشر» عن هنا...

- لا، لن تحاول منعي. قال الرجل العجوز بسرعة كأنه يقرأ ما يجول في أفكاره. بعد نصف ساعة من الآن، سيجتمع المفوضون. وأنوي أن أكون بينهم، وأخبرهم بحقيقتي. إنها الطريقة الوحيدة الممكنة...

- لا يمكنك ذلك! لن يسمحوا لك أن تغادر! أرجوك...

- اسمعني يا بني. عندما ينشطر الشق، ستتحطم أجهزة صُنع الطعام ما لم يتخذوا إجراءات فورية. إنها الطريقة الوحيدة لديهم للبقاء على قيد الحياة.

- لكن...

- استدار «تيتشر» مشيراً بيده. دعني أنهي كلامي. أيمكنك الوصول إلى تلك الصخرة الكبيرة هنا؟ إنها على بعد ميلين من الساحل.

- الظلام يمنعني من رؤيتها الآن، لكنني أعرف مكانها. رأيتها في وقت سابق.

- رائع! مهمتك أن تصل بالقاربين إلى هناك وتنتظرني. إن سارت الأمور على خير ما يرام. ألقاك هناك عند الفجر.

- لكن... لكن لنفترض...

- رد «تيتشر» ببرود: أنني وقعت في مشكلة؟ إنها الفرصة الوحيدة أمامنا. المد يكون منخفضاً عند الفجر، وإن لم ترني أتجه نحو الصخرة، اتجه سريعاً إلى الجهة الأخرى من المكان الذي أخبرتك عنه. ستجد في علبة صندوق الأدوات تعليمات دونتها لك. ستخبرك بالضبط ما عليك فعله.

- فكر كونان في نفسه. ستخبرني التعليمات كيف أبحر من دونه. لكنني لن أفعل ذلك على الإطلاق.

تصلب فكاه بينما كان يراقب الميناء يَسْوَد في الظلام. كثير من المجريات قد تحدث من الآن وحتى الفجر.

7- رحلة

لم يكن المحرك الذي يعمل ببطارية مثبتة أسفل المقعد يصدرُ ضجيجاً، إذ كان يدفع القاربين ببطء في الظلام. وقد طغت عليه أصوات نسيم الليل وحفيف المد القادم وغرغرة الماء المتسرب من غرفة المحرك. كان بإمكان صبي صغير أن يتولى الأمر، فالأمر في غاية البساطة. لكن كونان وعلى حين غرة واجه تعقيدات لم يكن يتوقعها، وكانت مع كل دقيقة تمضي تزداد تعقيداً.

كانت الخطوة الأولى أن يبحر بأمان في القناة المتشكلة من الحوض. لم يكن ذلك أكثر من طريق غارق تحده الهياكل المغمورة من الجانبين.

في وقت سابق، كان الإبحار على طول القناة إلى المياه العميقة ثم الانحراف إلى اليمين باتجاه الصخرة من أسهل المهمات إنجازاً. ولمساعدته على اتخاذ مسار مستقيم، أعطاه «تيتشر» بوصلة يدوية يثبتها بين قدميه، وضَوءاً يدوياً رُبِطَت فوقه قطعة حمراء من البلاستيك. كان الغرض من الجزء البلاستيكي أن يخفف من وهج الضوء، ليس فقط كي لا يراه أحد على الشاطئ، بل ليساعده أيضاً على رؤية إبرة البوصلة من دون أن يؤثر ذلك على رؤيته الليلية. لكن كونان أدرك بسرعة أن الإبحار باستخدام البوصلة ليس أمراً يمكن تعلمه بدقيقة واحدة، خاصة في الظلام الذي يحجب عنه رؤية أي شيء أمامه.

في الدقائق الأولى، تفادى القناة مرتين، ثم احتك القاربان بأجسام مغمورة، قبل أن يدرك أنه لا يتيح للمد فسحة مناسبة. ثم اكتشف ما هو

بديهي للبحّارة المحترفين، أنه في الظلام يمكن أن يرى بوضوح أكثر من زاوية العين وليس بالنظر مباشرة. ومكّنه ذلك من العبور إلى نهاية القناة من دون مزيد من المتاعب.

ظن كونان عندما استدار إلى اليمين في المياه العميقة متجهاً نحو الشمال أن الصعوبات انتهت. في تلك اللحظة، أصبح الليل سواداً حالكاً، وكانت طبقات من الضباب الرقيق تتشكل حوله. بدا أنه يبحر في الفراغ. عندما حاول أن يتفقد مساره من البوصلة، ارتعب من رؤية الإبرة تدور من دون انتظام. أدرك أن هذه المنطقة تحوي معدات غارقة تؤثر على أداء البوصلة. لكن معرفة السبب لم يكن عوناً كافياً. كيف سيجد الصخرة قبل بزوغ الفجر؟

يبدو أن المد، حسب تقديره، بدا كأنه يرتفع في الاتجاه العام. ربما من الحكمة أن يتماهى مع تيارات المد. لكن مع دوران المحرك أضاع وجهته تماماً، وقُذِف إلى البحر.

بينما كان ينجرف مع المد، أطفأ المفتاح الكهربائي، وجلس ينصت، ويبحث في الظلام. في ذلك الوقت الذي غادر فيه الحوض، لم يكن لديه أدنى شك أن أضواء مصانع الأغذية الليلية كانت ستُضيء كالمنارة، وأنه من المستحيل أن يضل الطريق. لكن ليس بمقدوره الآن أن يرى شعاعاً واحداً في أي اتجاه. لم يسمع صوتاً، ما خلا صوت اصطفاق الأمواج بالقاربين، وحفيف الريح الغامض. بدا أمراً مستحيلاً أن يتوه بهذه السرعة. لكنه كان كذلك بالفعل، وإلى أن استقامت إبرة البوصلة، لم يكن بمقدوره فعل الكثير.

لكي يتجنب التفكير فيما قد يواجه «تيتشر»، بدأ يفكر بـ«هاي هاربور» ولانا. لم يشعر أنها على هذا القدر من البعد كما هي الآن في ساعة الهروب هذه.

***

كانت لانا في هذه اللحظة تصلي كي يهطل المطر. لا يعني هذا أن

المطر سيجلب أي حلول، لكن على الأقل سيكون من المستحيل عقد الاجتماع الليلة. وإلى أن يُحدد موعد آخر، سيكون بإمكانها حشد المزيد من الفتيان والفتيات لوضع حد لـ«أورلو».

استطاعت بمساعدة «مزال» أن تخبر بعضاً من الفتيان والفتيات فقط، إذ كان ينبغي على إحداهما أن تبقى قريبة من المكتب كلما خرج «شان» في عمل ما. وبما أنها ممرضة المكتب في أغلب الأوقات، فحتى تنتهي من عملها يكون قد حل الليل. وفي حالات الطوارئ تجيد تجبير الكسور وخياطة الجروح أكثر من «مزال». لذلك قررت أن تجمع في الغد الجيران الصغار، وتوكلهم بمهمة التحدث مع المجموعات المبعثرة في أرجاء المكان. وبطبيعة الحال، كان أولئك القاطنون في المزرعة القريبة ميئوساً منهم، لأن «أورلو» قد زرع الخوف في نفوسهم مسبقاً. لم يُقدِم «أورلو» على فعل أي شيء، لكنه كان يستغل مجريات الأمور أفضل استغلال، وإن لم يكن أحد يجرؤ أن يقف في طريقه.

لكن كان لابد من إيقاف «أورلو».

شرعت لانا تصلي. أرجوك يا ربي. دعها تمطر. دعها تمطر، وتمطر.

ثم أدركت أن عليها أن تصلي للصغار المرضى، وأن تصلي لـ«تيتشر» وكونان اللذَين ربما يحاولان الهروب الآن. في الليلة الماضية، لم تتمكن «مزال» من التقاط أي رسالة. لكن حلّ مساء آخر اليوم، ومن المحتمل أن يستجد شيء.

الشفق الغارق بالسواد جعلها تفطن أن ثمة أعمالاً كثيرة ينبغي إنجازها قبل أن يُخيّم الظلام. فأسرعت إلى المطبخ، تهيئ النيران المشتعلة، وتملأ الغلاية، وتعد الطاولة، وتضع عليها السمك البارد وبقايا الأكل المتوفر من طعام البارحة. بدت الوجبة فقيرة بالمكونات للغاية، فلم يتوفر لديها الوقت لتطبخ بعد الانتهاء من الإفطار، لكن ربما تعثر على شيء طازج في الحديقة.

حالما خرجت ورأت «مزال» قادمة من البرج نسيت أمر الحديقة

كلياً. وبنظرة واحدة على وجه خالتها الشاحب، كانت كافية أن تنقبض روحها في أعماقها أكثر.

- ما الذي حدث يا «مزال»؟

- لا يمكنني أن أتفوه بكلمة. ولا كلمة واحدة. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالعجز عن الكلام! هل عاد «شان»؟

- لا. لقد خرج طيلة اليوم.

- هزت «مزال» رأسها قائلة: يا إلهي! لابد أن الفيروس يزداد انتشاراً. أتمنى أن تكون الأمور بخير.

الخالة التي رأَتْها كانت مضطربة للغاية وعلى وشك أن تذرف الدموع. وفي فورة اضطرابها، شعرت لانا بالرغبة نفسها.

- ألا يمكنكِ أن تخبريني ما الأمر يا «مزال»؟

- هذه هي المشكلة. لا أعرف. ما ينتابني هو مجرد شعور.

- وبينما تكملان الحديث دخلتا إلى المطبخ وجلستا إلى الطاولة. أضافت «مزال» ببؤس: إنه الانقباض المريع الذي يصيب المعدة، الشعور السيئ أن أعماقك فُصِلَت عن كل شيء. لقد وقع خطب ما. أعرف ذلك. شيء ما سيمنعهما من الهرب.

- لا تتكلمي بهذه الطريقة يا «مزال».

- لا يسعني ذلك. لا يمكنني أن أتجنب الإحساس. لقد وقع أمر ما. أراهن أنهم عرفوا حقيقة «تيتشر».

- لا!

- أراهن أنهم عرفوا ذلك. وإن صحت ظنوني، لن يتمكنا من الهرب أبداً.

- كونان سيتدبر الأمر بطريقة ما.

- نظرت «مزال» إلى لانا: لديكِ ثقة هائلة بـ«كونان»، أليس كذلك؟

أجفل السؤال لانا. لم تفكر بالأمر بتلك الطريقة. لكن شعورها كان

حقيقياً. العديد من الأمور الصغيرة التي تعود إلى أيام طفولتها، كانت قد تسببت بذلك الشعور من الثقة. وليس أقلها الشعور الذي كان يكنه «تيتشر» لـ«كونان».

- أخبرَتْ «مزال». سمعتُ «تيتشر» يقول ذات مرة إنه إن تحتم عليه أن يوكل أحداً بفعل ما لا يمكن فعله، لن يضطر أن يفكر بغير كونان. وقال هذا منذ وقت طويل عندما كان كونان...

قَرْعٌ قوي على الباب الأمامي قطع كلامها. كان القرع مُلحّاً لدرجة جعلها تقف على الفور متجهة إلى الباب مستاءة، فيما تبعت «مزال» خطاها. لقد عرفتْ ذلك القرع.

عندما فتحت الباب، واجهت شخصاً بلحية سوداء كانت تتوقع رؤيته.

- سألها المفوض «دايس». أين الطبيب؟ وعد أن يلتقي بي في مكتبه. لكنني لا أرى له أثراً.

- لديه بعض المرضى الصغار. أخشى أنه قد تأخر. ردت لانا.

- لستُ معتاداً أن أنتظر أحداً. إن كان يريد مني أن أسديه معروفاً...

- معروف؟ قاطعته «مزال» بحدة كأنها لا تصدق ما سمعت.

حدق بها المفوض غاضباً، ثم استدار بينما كان أحدهم يترنح فوق ظلال الصنوبر.

- صرخت «مزال» قائلة: «شان»! ثم هرعت إليه تسأله: هل أنت بخير؟

- إنني بخير يا مزال.

صعد الدرجات معها ببطء، ورمى الحقيبة، ثم اتكأ على الحائط وهو ينظر إلى المفوض. لاح في عينيه شعور لم تره لانا فيهما من قبل. كان «شان» من ألطف المخلوقات وأكثرها تواضعاً، لكن في تلك الليلة كان مخيفاً بحق. ما الذي حدث يا تُرى؟

- قال «شان» بهدوء: رَجَوْتُك في الليلة الماضية أن تساعدني. لكنكَ رفضت ذلك. ورَجَوتُك اليوم مراراً وتكراراً وها أنت ترفض.

- أجابه المفوض: أتعرف السبب؟ لا أملك الصلاحية أن أمدك بالمعدات الطبية من دون إذن.

- هل أنت أخطبوط عديم المشاعر تحتاج إلى إذن لكي تقوم بفعل بسيط من الرحمة.

- انتبه لكلامك يا دكتور! أخبرتك أنني سأعود إلى المسؤولين وآخذ منهم التعليمات، وأنني سأناقش الأمر معك هذا المساء. ألم أخبرك بذلك؟

- إذن فعلتها. وها قد أحضرت أخيراً ما أحتاج إليه بعد عشر ساعات. لقد فات الأوان!

- ماذا؟ علام فات الأوان؟

- أجاب بأسلوب أقرب إلى الهمس: فات على إنقاذ الفتاة. كان اسمها -لكن لن يَعنيكَ ذلك في شيء، ولم يعد الأمر مهماً الآن. ها قد انتهيتُ لتوي من دفنها.

شَهَقت لانا ولاحظت بعينها نظرة مزال الحزينة. ولكن قبل أن تتفوه أي منهما بكلمة، تحدث «شان» مرة أخرى، وأصبحت نبرة صوته قاسية فجأة.

- إذن أحضرتَ الحبوب لكي تحصن الجميع. لكنني متأكد أن ثمة ثمناً لذلك. ما الثمن الذي تريده أيها المفوض؟

- لم ترف عين واحدة لمبعوث «النظام الجديد» وهو يقول ما يريد: أريد الطائرتين.

- أخذ «شان» نفساً عميقاً. لا يمكنني مقاومتك الآن. خذ الطائرة. لكن يتعينُ عليكَ أن تتدبرَ إجراءات سحب الطائرة الصغيرة.

- لقد اتخذتُ جميع الإجراءات اللازمة. ثمة أمر واحد بعد. رد المفوض بكل فخر.

- لقد أنهينا الصفقة! أعطني الحبوب.

- ليس بهذه السرعة يا دكتور. الطائرتان لا قيمة لهما من دون الجزء الصغير المفقود من آلية كل منهما. أريد الأجزاء المفقودة.

- لا أعرفُ عما تتحدث. لفظ «شان» الكلمات متلعثماً.

- لا تعبثْ معي يا دكتور! لابد أنك تعرف.

- نقر المفوض بأصابعه على حافظة بلاستيكية كان يضعها تحت ذراعه وقال بأسلوب يشي بالتهديد: في هذه الحافظة جرعات تكفي أن تحصن الجميع في «هاي هاربور». لكن من دون أجزاء الطائرتين لن تحصل على أي من الجرعات.

- صرخ «شان» غاضباً: قلتُ لك لا أعرف عنها شيئاً. أي نوع من المخلوقات القذرة أنت حتى تجعل الأطفال يموتون.

- مهلاً، تذكرتْ. قاطَعَتْه «مزال»، ثم صفقتْ بكَفَي يديها المتشابكَين وأضافتْ بتوتر: منذ سنوات مضت طلب مني «تيتشر» أن آخذ الأجزاء وأضعها في مكان آمن.

وعلى الفور استدارتْ وذهبتْ إلى الكوخ. ثم عادتْ بعد لحظات تحمل زوجاً من الصناديق المعدنية الصغيرة والثقيلة الحجم ملفوفة في طبقة من البلاستيك الرقيق.

- أهذا ما تريد؟ «تيتشر» كان يسميها المحولات.

- إنها المحولات بالضبط. قال «دايس» بصوت هادر. فتح الحقيبة، وأخرج بعض الأكياس الشفافة المليئة بحبات زرقاء صغيرة، ووضع مكانها الصندوقين المعدنيين، ثم أغلق الحقيبة ونفحة من الرضا بادية على وجهه. حدثهم وهو يَهمُّ بالمغادرة. أعتقد أن الجميع سعداء الآن.

- أنا لست سعيداً. قال «شان» ثم وضع أكياس الحبات الزرقاء في يد «مزال» وأضاف، مهلاً

- ماذا؟

- قبل أن تذهب أيها المفوض أريد أن أوضح بعض الأمور. لستُ غبياً حتى تظن أنني لا أعرف ما تضمرُه. إنني متأكد أنك أطلقتَ الفيروس نحونا عمداً.

- كلام فارغ! إن لم تنتبه لما تقول...

- قاطعه «شان» بصوت مرتجف: أنت كاذب قذر. أعرف ما فعلتْ. أنت و«النظام الجديد» ترتكبان أي صفاقة للحصول على ما تريدان. كان بإمكانك أن تعطينا الحبوب الليلة الماضية. لم تكن بحاجة إلى إذن. فإن هذا لا يجعلك كاذباً فقط بل قاتلاً أيضاً. أنت تقتل الأطفال! لو أنك رأيتَ تلك الطفلة...

- اخرس! فجأة صوّب «دايس» يده وضرب «شان» بقوة جعلت الطبيب الهزيل يتهاوى ملتصقاً بالحائط. كان غير قادر على التنفس. لكن للحظة فقط. بعد ذلك انطلق «شان» اللاهث إلى لحية المفوض مستحوذاً عليها بيديه. وانفجر في نوبة غضب متصاعد جعلت «دايس» يتدحرج على الدرجات وينبطح أرضاً في الفناء على ظهره. لحق به «شان» ورماه بحجر قائلاً: أيها الوحش الملعون! اغرب عن وجهي قبل أن أحطّم رأسك.

لم تدرك لانا حينها أنها لحقت بـ«شان» إلى أن هرع المفوض بالخروج من الفناء وتلاشى في طبقات الغسق. ثم أدركت أنها تحمل عصاً سميكة في يدها. كانت «مزال» تضعها دائماً على الشرفة لتُعينَها على التسلق. ارتجفتْ فجأة وألقت العصا من يدها ثم نسيت أمرها عندما لامست قطرات المطر الأولى وجهها.

بدأت الأمطار تنسكب قبل أن تتمكن من الوصول إلى الشرفة. أخذَتْ نفساً عميقاً وحدثَتْ نفسها. شكراً يا الله. أشكرك! ثم أدركَتْ أن الخطر المحدق بـ«هاي هاربور» أصبح أشد وقعاً مما كان عليه، وأن المطر وتأجيل الاجتماع لن يغيرا من مجرى الأمور شيئاً.

***

لابد أن بعضاً من اضطرابات لانا قد وصل أثرها إلى كونان، فقد أحس فجأة برعشة قلق بدا أن لا علاقة لها بالمأزق الذي يواجهه. وفيما كان يبذل جهداً للتخلص من هذا الشعور، حاول التركيز على مشكلة تحديد موقعه في الظلام.

نظرة خاطفة على البوصلة المثبتة تحت شعاع الضوء الأحمر أظهرت له أن المؤشر كان ما يزال يتأرجح. كم من الوقت مضى وهو يجدف؟ نصف ساعة؟ لقد مضى كل هذا الوقت وربما أكثر. أيعقل أنه قطع ميلاً خلال هذا الوقت؟

أقنع نفسه أن الريح والمد معاً سيجعلانه يجتاز نصف الطريق إلى الصخرة. بالطبع إن استطاع أن يخمن وجهة الانحراف الصحيحة.

وبعد أن انتابه شعور مفاجئ من الصدمة، خطر بباله أمر كان عليه أن يأخذه مسبقاً بعين الاعتبار. عندما ابتعد عن الحوض كان المد قد بدأ يرتفع، لكن ماذا عنه الآن؟

قال له «تيتشر» إن المد يكون منخفضاً عند الفجر. هذا يعني أنه يجب أن يكون مرتفعاً الآن، أو أنه قد بدأ بالانحسار. وعلى الفور اندفعَ إلى الأمام، ثم قفزَ فوق المعدات المبعثرة باحثاً عن لفافة السلك المعدنية وقطعة الإسمنت المكسورة، التي بسبب ندرة المعادن، كانت بمنزلة مرساة. وجد القطعة أخيراً، وبدأ يثبتها فوق القوس، ثم فكر أنه من الأفضل أن يقلل ارتفاعها. كان من الجيد أنه فعل ذلك، فقد كادت اللفافة تنتهي قبل أن يثبِت السلك في مكانه. وعندما شارف على الانتهاء وجد أنه لم يستطع تعليقه بوَتَد المقدمة.

أطلقَ صفيراً ناعماً تشوبه رعشة الاقتراب من النجاة. كانت خسارة السلك الثمين فألاً سيئاً بما فيه الكفاية. لكن عمق الماء كان دليلاً على أن المد غيّر مساره، وأن القاربين دلفا إلى البحر.

بعد أن تفحصَ حبل القطر الموصول بالقارب الثاني، رمى بطانية فوق جسمه محاولاً التكور بطريقة مريحة على شاكلة كومة من المعدات.

كان ينام ويستيقظ بشكل متقطع. ثم جلس منتصباً مدركاً أن الضباب

قد انحسر. بدت أضواء مصانع الأغذية الزرقاء الباهتة على الشاطئ واضحة للعيان. ومن ناحية الميناء، بانت هيئة الصخرة السوداء تحت السماء الصافية أقرب مما كان يتخيل.

في بضع لحظات، رفع المرساة، وأبحر القاربان نحو الصخرة.

بعد الالتفاف نحو الكتلة الكبيرة، بدأ يقتربُ بحذر، ثم تسمّر في مكانه بعمق قدمين من الماء على الجانب البعيد عن المدينة. كان الفجر قد أوشك أن يبزغ الآن، وقد استطاع بسهولة اجتياز الشاطئ الضيق المُختل الأمواج إلى مسافة تصل إلى خمسين ياردة. لم يظهر أي أثر لـ«تيتشر». لكن الوقت ما يزال مبكراً وثمة متسع من الوقت قبل أن يرتفع المد ويغمر الشاطئ.

وبينما كان ينتظر، نظر بفضول إلى الجرف المرتفع فوق شريط من الرمال والركام. كان ارتفاعه من نقطة نظره يزيد قليلاً على ستين قدماً، وبدا أن الارتفاع يتضاءل من جهة «إندستريا»، لكنه ظل من الجهة اليسرى يستمر في الارتفاع إلى أن تلاشى في ضباب الفجر.

حادثة التغيير شكلت الجرف لأن الأرض قد انفصلت كلياً كأنها قُطِعَت بسكين حادة. في اللحظة التي تنبه فيها لصوت جَرْش غريب، كان يفكر إن كان الصدع تحت المدينة يمتد كل هذه المسافة. نظر أمامه وتجمد. كان جزء عريض من الجرف يتحرك أمامه مباشرة. وتعبيراً عن اندهاشه الممزوج بالذعر، انفرج فوه عند رؤية تلك الكتلة ذات الأطنان الهائلة من الصخور تنزلق بمشهد بطيء، ثم تسقط بوتيرة تزداد سرعتها إلى أن يزأر حطامها بهدير مدوٍ في أعماق البحر.

في تلك اللحظة، أمسكَ مرتجفاً بالحافة العليا من القارب، وقد أغرقه رذاذ البحر المتدفق. هل بدأ الصدع يتفتت؟ عندما بدأ ضوء الفجر يسطع، كشف مواقع أخرى كانت قد تهاوت منها أجزاء من الجرف. تلك الانهيارات السابقة هدّأت من روعه لحظات قليلة. وعندما عادت مخيلته للاستحواذ عليه أيقن بشدة خطر البقاء على الساحل.

لماذا لم يأتِ «تيتشر»؟

تحول الفجر إلى صباح رمـادي، ومن البحر أحس بنفحة المد المتدفق. وخلال وقت قصير، غمرت المياه الشاطئ الضيق تحت الجرف.

تبين له في نهاية المطاف أن «تيتشر» لن يأتي. لابد أن شيئاً ما قد حدث.

أزاح كونان، وقلبه يشعر بالخيبة، غطاء صندوق المعدات ليلقي نظرة خاطفة على تعليمات «تيتشر». فجأة ألقى بها جانباً وأعاد الغطاء إلى مكانه. فكان الأمر كما توقع. بعد الاستعداد للإبحار، من المقرر أن ينطلق إلى «هاي هاربور» وحده. كان «تيتشر» قد رسم له مخططاً تقريبياً يتضمن مُقتَرَحاً عن أفضل مسار يسلكه. بدا واضحاً إن لم يتمكن «تيتشر» من اللحاق بـ«كونان»، فإن الأمل بأن يصل إلى النقطة الأخرى ضئيل جداً. كيف يمكنه ذلك؟ رجل عجوز مسن، أعمى تقريباً...

بينما كان يفكر بحل ما، صرخ كونان وهو يضرب صدره بقبضة يده، ما الذي فعلوه بك؟ هل حبسوك في مكان ما؟

بالتأكيد فعلوا ذلك. فهو «برياك روا»، أثمن قطعة ممتلكات يأمل «النظام الجديد» أن يمتلكها. ربما حبسوه ووضعوا أمام الباب حراساً. ولابد أن «تيليت» بعد مرور هذا الوقت، قد أبلغ عن اختفاء القاربين والمساعد الجديد، وسيعرفون أن ثمة أمراً كان يُخَطَط له.

ما الذي عليه أن يفعله؟ هل يكمل الطريق إلى المكان الآخر، ويفرّغ حمولة القاربين، ثم يتسلل عائداً بعد حلول الظلام بحثاً عن «تيتشر». الشق في الجرف يقع على بعد أميال، والوصول إلى هناك ثم العودة سيستهلك طاقة البطارية التي قد يحتاج إليها فيما بعد. لكن أن يبقى هنا، في منطقة مكشوفة كهذه...

لقد حسم الأمر فجأة. لفتَ انتباهه من بعيد ضجيج أحد المحركات،

ومال على الفور ليستطلع ما بدا أنه سفينة صيد تظهر على بعد نصف ميل متجهة نحو البحر. وبسرعة سحب المرساة وحرك القاربين إلى الجهة الأخرى من الصخرة. شعر بالارتياح، وهو ينظر من حافة مخبئه، لرؤية السفينة تبحر بثبات على الساحل. كان صوت محركها القديم أشبه بإيقاع باهت لطبل بدائي.

لقد سمع مرة أن لديهم سفينة كهذه، لكن هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها. ولما كانت السفينة تحوم قريباً من المنطقة، لم يجرؤ أن يغادر الصخرة في وضح النهار.

للتقليل من خطر أن يراه أحد، أرسى القاربين عند أقرب مسافة ممكنة من الصخرة، بدأ بعد ذلك يواجه مشكلة تغطيتهما بلفافات البلاستيك التي أخذها من المستودع. ثم تفرّغ لمحنة الانتظار اليَقظ إلى أن يحين انقضاء ضوء النهار.

عندما بدأ رحلة العودة إلى الحوض، ترك القارب الثاني محملاً بالجزء الأكبر من المعدات راسياً بالقرب من الصخرة. سطع نور القمر المتكور في الأعلى، الذي كان منذ التغيير محجوباً جزئياً بطبقات من ضباب الغلاف الجوي. كان وهجه المنير، وأضواء مصانع الأغذية التي رآها فيما بعد، عاملاً كافياً لكي يحدد موقع القناة.

عندما وصل إلى القناة، لم تعترضه أي مشكلة، وكان همه الوحيد ألا يقترب من الحوض كثيراً لدرجة تمكنهم من رصد قاربه من الشاطئ.

عندما بلغ حافة الحوض توقف عندها، وأرخى المرساة، وخلع ملابسه. ثم أخذ من صندوق الأدوات قضيباً صغيراً مُتلَفاً ربطه حول خصره بسلك معدني. كان على وشك أن يقفز في الماء عندما خَطَرَ المصباح اليدوي بباله. ماذا لو انسدل الظلام قبل أن يتمكن من العثور على مكان «تيتشر»؟

سبح، ممسكاً المصباح في إحدى يديه، من الحوض وصولاً إلى الحافة الإسمنتية المهشمة، وبينما كان يتفحص الواجهة المائية، استقام

بحذر في المد المنحسر جزئياً. كانت الظلال السوداء المترامية من مرفأ القوارب والمباني المحيطة تحجب الضوء المنبعث من مصانع الأغذية، وكانت المنطقة أمامه بفعل وهج القمر باهتة الإضاءة. في تلك اللحظة، تبين أن الواجهة المائية أصبحت أمامه.

بدأ يتحرك على طول الحافة المائية ليتمكن من غمر نفسه فوراً إن سمع خطوات أحدهم. كان مبنى الإدارة وجهته المقصودة. فقد كان متأكداً أن رجلاً بأهمية «تيتشر» يُحتَجَز في مكان مناسب حيث يمكن للمسؤولين والضباط رؤيته والتحدث معه. وبينما كان يقترب من زاوية المبنى البارز، بدأت الواجهة المائية تتقوس، وتوقف فجأة. على الجانب الآخر، لمع ضوء عابر. الآن سمع ضحكات.

تسلل إلى الزاوية ونظر حوله بعناية. خمسون قدماً فقط تمكّنه من بلوغ السجن الصغير الذي أمضى فيه الأيام العشرة الأولى له في «إندستريا». لاحت أمامه امرأتان مع دراجتين بالكاد استطاع رؤيتهما؟ أهما المرأتان اللتان أحضرتا له حصة الماء؟

مجدداً ومض الضوء. سمع ضحكات مكتومة، وامرأة تقول باستهزاء:

- انظري إلى المحتال المسن! لماذا لا يعرف من يكون؟ لماذا؟

- قالت الأخرى: «باتش»، ألا تعرف من تكون؟ هيا «باتشي»، ما بك؟

- ثم عاد صوت المرأة المستهزئة. سأخبركِ ماذا أصابه. لقد فقد السيطرة. لطالما كنتُ أقول إنه سينقلب ويحرق كل الاحتمالات. ألم أقل ذلك؟ بالتأكيد قُلْتُه. لو أن المقر الرئيسي عمل بما قلتُ منذ البداية...

عض كونان على أسنانه غاضباً. لماذا يُحتَجَز «تيتشر» هنا؟ ألا يملك أحد في «إندستريا» عقلاً ليصدقه؟

ثم تراجع بسرعة إلى حافة الرصيف المائي وتسللَ إلى الماء بعد أن أدرك فجأة أنه من الممكن أن يُكتَشَف أمره في المكان الذي يقف فيه.

بعد وقت قصير، سمعَ قرقعة الدراجات البلاستيكية، ولمحَ الضوء يتحرك باتجاه متجر القوارب. وحالما اختفى الضوء، قفز من مخبئه وهرعَ إلى الحجرة.

- تحدث همساً. هذا أنا يا «تيتشر». أنا كونان. هل أنت بخير؟

أخافه رد «تيتشر» المُنهك، فاندفع إلى الباب بجنون، وبالكاد لزمه القضيب لخلخلة المفاصل. في الداخل، رأى الرجل العجوز مرمياً في الزاوية، غير قادر على النهوض، وبالكاد يستطيع الكلام.

- لا تعبأ لأمري يا بني. إن أمسكوا بك، سيقتلونكَ بالتأكيد.

انتزع كونان «تيتشر» من ذراعيه، وأخرجه من المكان، وبدأ يركض إلى حوض القارب. كان قد نسي القضيب في الحجرة، لكن المصباح كان ما يزال معلقاً بيده اليسرى.

عندما وصل إلى الحوض صُوّبَ نحوه ضوء من المرفأ.

- ناداه أحدهم: أنت! ما الذي يجري هنا؟

كان صوت «تيليت». تجمد كونان في مكانه، ثم أرخى بلطف «تيتشر» على الرصيف المهشم. لم يكلف نفسه عناء التفكير بسبب وجود «تيتشر». كل ما في الأمر أن الفتى استغل مجريات البارحة وتولى مسؤولية المرفأ. وسيكون متحمساً للغاية لاستغلال ما رآه الآن لمصلحته. فذلك قد يمكنه من الحصول على الجنسية. لذلك كان على «تيليت»، بطريقة ما، وبسرعة، أن يتعامل مع الحدث.

اندفع الفتى من المرفأ، لكنه توقف فجأة عندما تعرّف إلى كونان.

- هذا أنت! لقد عُدتَ من أجله، صحيح؟ حسناً، سوف...

- اسمعني يا «تيليت». إن كنتَ ترغبُ أن تنقذَ حياتك، عليك أن تأتي معنا.

- لا تورطني بثرثرتك المجنونة. أتظنني مغفلاً؟ ما الذي ستفعله بالقاربين؟ أين هما؟

حرّك «تيليت» الضوء ليضيء الحوض، وعلى الفور أضاء كونان المصباح الذي يحمله بيده. تسبب له الضوء بإرباك في الرؤية فقط. لكن كان ذلك كافياً لأن يمنع الرد الذي كان سيرده «تيليت». في اللحظة التالية، انقض كونان عليه. ومزق سترته، ثم اقتطع منها أجزاءً وقيده بها، وحشا فمه بقطعة منها. استدار بعد ذلك وحمل «تيتشر» وأنزله إلى الحوض.

قد لا تستغرق السباحة في الحوض وهو يسحب «تيتشر» من ياقة سترته أكثر من ثلاث دقائق، لكن بدا أنها استغرقت عشرة أضعاف ذلك الوقت. كان من المتوقع بالنسبة إليه أن يسمع جرس الإنذار من الشاطئ، ثم تَتْبَعه حزم الإنارة ونيران الأسلحة. فقد كان لديهم أسلحة هناك. وبالتأكيد أن دوريات الحرس الليلية مدججة بها. لكنه لم يسمع جرس الإنذار إلى أن وصل جاهداً إلى القناة، وسبح إلى القارب محارباً تيار المد. كان يلهث وقد بدا منهكاً الآن، وكان كل ما بوسعه أن يفعله وهو يصعد إلى سطح القارب أن يبقي رأس «تيتشر» طافياً فوق الماء. سحب بعد ذلك «تيتشر» إلى القارب، وبدأ حينها يدرك صرخات «تيليت» من بعيد. لكن صرخاته لم تلقَ رداً سريعاً. وفي الوقت الذي بدأت فيه أشعة الأنوار الكاشفة تكتسح الماء، كانا قد ابتعدا ما يزيد ميلاً عن المنطقة المغمورة ويتجهان نحو الصخرة.



8 – الإبحار

توقف كونان وقتاً كافياً عند الصخرة ليستريح «تيتشر» قدر المستطاع بعد أن جرّده من ملابسه ودثره بالبطانيات. وبوجود القارب الآخر مركوناً حسب وجهة الإبحار، همّ بالانطلاق نحو الساحل طالما أن المحرك الذي يعمل بالبطارية يمكن أن يصل بهما إلى هناك. من دون ضوء كان من المستحيل أن يضبط مؤشر البوصلة، لكن أشعة الإنارة العريضة المنبعثة من الجرف من ناحية اليمين كانت مرشداً كافياً له.

ظل مواظباً على بقائه في المياه العميقة طالما أن الجرف كان مرئياً له. وحالما تلاشى الجرف كلياً في الضباب، اضُطر كونان إلى التباطؤ والاقتراب من الشاطئ. وفي النهاية تلاشى الجرف كلياً. وأصبح بإمكانه الآن التسلل مسترشداً بتلاطم الأمواج الناعم فوق الصخور.

مع أن الضباب يعد عدواً، فإنه كان ممتناً له مع انقضاء الأميال البطيئة. فسفينة الصيد التي رآها في الصباح لم تعد للبحث عنهما. من المحتمل أنها تبحر في مكان ما هنا، ما لم تجتز البحر.

بدأ يفقد الإحساس بالوقت تدريجياً، حتى أنه في لحظات تعبه المتزايد نسي أمر السفينة. فهو لأيام وليال عديدة لم يحظَ إلا بقليل من النوم والراحة، وبالكاد كان يعبأ لأمر الطعام لشدة ما كان قلقاً على «تيتشر». الآن أصبحت المعركة مستمرة ضد النوم، وكانت توقظُه فجأة كوابيس الليل التي كانت تظهره تائهاً أو مقيداً في مكان يجهله.

في إحدى المرات، استيقظَ فوجد القارب يطفو فوق جرف رملي.

وبينما كان يجاهد لانتزاعه من الجرف، سمع «تيتشر» يقول بصوت منخفض: أمامنا مسافة ضئيلة ونكون قد وصلنا.

بالفعل عندما تكلم «تيتشر» مرة ثانية كانا قد وصلا. لم يستطع من كثرة الضباب أن يرى شيئاً، ولا حتى «تيتشر». لكنه وصل بالقارب إلى الشاطئ، ثم أطفأ المحرك، وأنزل المرساة على الشاطئ المغطى بالحصى.

لم يكن في تلك اللحظة يذكر أياً من زحفه وهو يعود إلى القارب وما غط فيه من نوم. بدا كأن لحظات قليلة قد مرت عندما أحس بيد «تيتشر» العظمية تضغط على كتفه.

- انهض يا كونان. علينا أن نتحرك.

لم يلتقط على الفور نبرة الإلحاح في صوت الرجل العجوز. فصباح رمادي آخر كان قد حل، وكانت تفوح في الجو رائحة الأسماك المقلية الشهية، وإيقاع خفيف من الموسيقى. طعام طازج وموسيقى! كانت قد مرت عليه أسابيع منذ أن تناول طعاماً طازجاً، وسنوات طويلة منذ أن سمع مثل هذه الموسيقى السحرية. هذا السحر الذي اختفى منذ وقت طويل، كانت تعزفه آلات من المحتمل أنه لم يعد لها وجود الآن.

كانت لحظة لا تخلو من الروعة والرهبة في آن. فقد أدرك على الفور أن الموسيقى تصدح من مسجل موسيقي من سفينة الصيد. لم تكن تبعد عنهما أكثر من بضع مئات من الياردات. وحالما ينقشع الضباب، وهذا ما قد يحدث في أي لحظة، يصبحان في مرمى رؤية جميع ركاب السفينة.

انطلق كونان إلى الشاطئ، وبدأ بشراسة يفرّغ حمولة القاربين. تبعه «تيتشر» وحاول بقواه الخائرة تقديم المساعدة. كان الرجل العجوز قد تعرض للضرب المبرح. كانت عينه السليمة مغلقة، ووجهه تغطيه الكدمات، وكانت كل حركة مؤلمة تنطق بالضربات التي تعرض لها جسمه. غضب كونان بصمت من غباء ووحشية أولئك الذين حاول «تيتشر» أن يساعدهم. وقد ضاعت جهوده هباء مقابل لا شيء.

– قال «تيتشر» بعد أن قرأ أفكاره: لا، لم يكن ذلك مقابل لا شيء. لكن الوقت لم يحن بعد لتوضيح ما جرى. علينا...

– دعني أحمل الأغراض. أنت لا تستطيع...

– عليّ أن أعمل. سيساعدني ذلك على التعافي. ضع المعدات من ناحية اليمين.

حتى وهما على هذه المقربة منه، بالكاد كان الصدع في الجرف مرئياً لهما. للوهلة الأولى، بدا الأمر وكأن أماكن لا حصر لها تهاوت منها الصخور، وأن البحر قد نَحَتَ الهيكل الأولي من الكهف. لكنه تقوس وامتد بعيداً عن الشاطئ. لو أن المد ارتفع عالياً لتمكنا من أن يصلا بالقاربين مباشرة إلى المكان المقصود مُتَجَنِبَين المحنة التي سيكابدانها الآن.

كان القاربان قصيرَين بطول أربعة عشر قدماً وبُنية ثقيلة بشكل غير اعتيادي. وقد تطلب جرهما وتفريغهما ثم سحبهما فوق الركام وصولاً إلى الشق قوة كونان كاملة. وبينما كان يلتقط القطعة الأخيرة من المعدات، ويحملها على عجل إلى برّ الأمان، لمح هيكل السفينة الغامض في الضباب المنقشع. كانت على مسافة قريبة جداً. بعد دقائق قليلة، سمع دوران محرك السفينة. شعر بارتياح شديد لما رآها تتجه نحو الساحل.

تحدث «تيتشر» عن الفقاعات في الشق التي كانت تتسبب بتيار طفيف يتدفق إلى الشاطئ. كانت رؤية ذلك تبعث على الارتياح، لأنه لم يكن هنالك متسع من الوقت لملء سوى بضع زجاجات في الليلة التي غادرا فيها. لكن ما إن جلسا لتناول فطور سريع قبل البدء بالعمل، حتى تبخرت مشاعر كونان بالارتياح. كان «تيتشر» في أوج هدوئه وراحة باله.

بينما كان العجوز ما يزال متدثراً بالبطانية يحاول أن يُريح جسده المصاب بالكدمات. بدأ يحدث كونان بصوت يتظاهر بالاعتدال.

– ثمة حقيقة أو حقيقتان أمامنا. فقد تتسبب لنا طبقات الأرض لاحقاً بقليل من المتاعب. أتعرف ما هو تسونامي؟

- أمواج عالية أو ما شابه، صحيح؟

- صحيح، هزات مختلفة يمكن أن تتسبب بتسونامي. لذلك علينا أن نكون مُتيَقِظَين. لكن هذا ليس قلقنا المباشر الآن. حالما يستعيد المفوض وأصدقاؤه رشدهم، ستأتي للبحث عنا مجموعة من الباحثين.

- لا أعي ما تقول. بما أنهم ضربوك...

- الضرب يثبت أمراً. كنت أتوقع أن أنال العقاب.

- كنتَ... كنتَ تتوقع ذلك؟

- بالتأكيد. أليس العنف هو رد فعل طبيعي من اللاعقلانية إلى العقلانية ومن القوة إلى الحقيقة؟ ثم ضحك تيتشر فأحس بالألم. آهٍ يا عظامي المضروبة! ألا ترى كم أثَرتُ غضبهم؟

هناك في «إندستريا»، وتحت نظرهم طيلة الوقت، كان يسكن العجوز الوغد الذي بذلوا في سبيل العثور عليه كثيراً من الجهد. كانت تلك ضربة موجعة لهم.

- لكنني ظننتُ أنهم لم يصدقوك.

- بلى، لقد صدقوني. لكن كيف يعترفون بذلك؟ «برياك روا» هو العجوز «باتشي»؟ أمر مثير للسخرية. لو أنهم كانوا يظنونني «باتش»، ذلك العجوز النزق في مرفأ القوارب، الذي جُنّ جنونه فجأة، لضحكوا عليّ ورموني في الخارج، في الصحراء ربما. إنهم لا يهتمون لأمر غير الأكفاء. لكنهم لم يضحكوا. لذلك أديتُ مهمتي بنجاح.

كان كونان يحدّق به مندهشاً.

- ثم أضاف «تيتشر»: إنهم يعون تماماً حقيقة أن صيدهم الثمين قد طار من الحظيرة. في اللحظة التي لا يجدوننا فيها- وأنا متأكد أنهم سيدركون ذلك- سيصبح الساحل بأكمله في حالة من الغليان. لذلك لا نملك الوقت الكافي الذي يمكنني الاعتماد عليه ليصبح القارب جاهزاً. تمنيتُ لو أنني أحظى بأسبوع واحد على الأقل.

- كم من الوقت لدينا؟

- ينبغي أن نغادر هذا المكان الليلة.

- لكن... لكن هذا مستحيل. رد كونان بصوت ضعيف، وهو يفكر بكومة التفاصيل اللانهائية التي عليه المباشرة بالعمل عليها فوراً -لصق البَدَن، وصنع الشراع، وتركيب الأوتاد الدقيق التي كان ينبغي تجميعها إلى قطع مقسمة من البلاستيك لعدم توفر الخشب...

- هذا صحيح، إذن سنغادر ليلة الغد عوضاً عن الليلة. تمتم الرجل العجوز ثم أضاف. حتى هذا يبدو مستحيلاً، لكن علينا أن نتدبر الأمر بطريقة ما، سواء كنا مُستَعِدَين أم لا. وبعد أن عرفوا حقيقتي، سيجعل التأخير ليوم واحد الأوان قد فات. وعليّ أن أحذرك، في حال لم ينجحوا في العثور علينا على الساحل، سيكملون البحث في البحر.

- لن يكون بمقدورهم العثور علينا بتلك السفينة المهترئة. ما نحتاج إليه هو بضع ساعات للانطلاق.

- لست قلقاً بشأن السفينة. المشكلة أن لديهم حوامات.

- لا!

- أجل، حوامتان. الحوامتان الباليتان اللتان كانوا ينقلون بهما الأغراض الثقيلة. إنهما أكثر خطورة علينا من عشرات القوارب. لكن دعنا نقلق لأمرهم لاحقاً. الآن علينا أن نبدأ بلصق البَدَنين معاً.

فيما همّ كونان للبدء بالعمل، كان يدور في خلده تساؤلات عن فرص نجاتهم. حاول حينها ألا يفكر بـ«لانا».

***

لم يقع مزيد من الوفيات في «هاي هاربور»، وكان خطر العدوى قد ولى الآن. لكن لانا كانت على دراية كبيرة بالخطر الآخر. في كل مرة كانت تنظر فيها إلى الميناء وترى سفينة المقايضة كانت تشعر بذلك. واستطاعت إلى الآن أن تعلم أن الاجتماع السري أُرجئ إلى أجل غير مسمى. لكن بالتأكيد كان من السابق لأوانه البدء بأمر جديد بعد موجة الفيروس مباشرة، فروايات عديدة كانت تنسج حول ما جرى. لكن ذلك

المفوض الدنيء لم يكن على عجلة من أمره. فهو قد حصل على جزء مما كان يريد، وحالما تهدأ الأوضاع...

ارتجفت يد لانا بينما كانت تدفع مكوك النول جيئة وذهاباً. لقد استيقظت باكراً اليوم لتنسج بضع بوصات إضافية من الأقمشة -فقد أصبح الحصول عليها من سفينة المقايضة أمراً غير وارد، وكانت ستنبذها لو أنها قُدِّمَت لها- لكن كان من المستحيل أن تحافظ على التركيز في العمل. كان التفكير بـ«كونان» و«تيتشر» يلح عليها. كم من الوقت مضى منذ أن سمعت «مزال» خبراً عن «تيتشر»؟ أربعة أيام؟ خمسة أيام؟ كان من الصعب، في ظل حالات عدم اليقين هذه، تتبع الوقت، وبدا أن أسابيع مضت على ذلك.

سَمِعَتْ صوتاً خافتاً خلفها، ونَظَرَتْ حولها على الفور، فرأت «مزال» تقف في المدخل. في الأيام الماضية كان وجه «مزال» الهزيل يتقلص، وفي صباح هذا اليوم كانت الهالات السوداء قد ظهرت تحت عينيها.

- قالت لها لانا: سأُعِدّ الفطور. لم لا تأخذين قسطاً من النوم؟

- ردت عليها بهمس: من يستطيع النوم؟

هزت لانا رأسها في محاولة منها للتركيز على حركة المكوك. كانتا على يقين أن ثمة حقيقتين واضحتين، حقيقتين فقط. الأولى أن «تيتشر» وكونان على قيد الحياة. والثانية أن بعضاً من الظروف المروعة التي لا يمكن تصورها جعلتهما عرضة للخطر.

لكنهما على الأقل كانا على قيد الحياة. إن معرفة حقيقة كهذه كانت بمنزلة أن يعرف المرء أن القلب ما يزال ينبض.

عادت «مزال» وجلست على كرسي بالقرب من النول وبدأت تحدث لانا. آخر رسالة وصلتني من «تيتشر»... ثم توقفت عن الكلام، وتسمرت عيناها على الباب.

حملقت لانا حولها مجدداً. كان «شان» واقفاً بالباب. دخل ببطء.

كانت يداه مدفونَتَين في جَيبَي ردائه. بدا أمراً غريباً بعد كل ما تعرض له «شان» أن يكون بكامل وعيه.

- سألهما: هل استطاع «تيتشر» الهروب؟ رجفت «مزال» وأوقعت لانا المكوك. ثم أضاف ناقلاً نظره بين الواحدة والأخرى. حسناً؟

- سَأَلَتْ «مزال» بنبرة ضعيفة: من قال إنه كان سجيناً؟

- رد «شان» بهدوء: كل الأحداث تشير إلى ذلك. كنت أتوقع منذ بعض الوقت أن يكون سجيناً وأن أحداً لا يعرف. وبالطبع أدركُ سبب عدم إخباري. وأعتقدُ أنه يجب أن أعرف الحقيقة الآن. هل أنا محق بشأن ما أقول؟

- همست «مزال»: أجل.

- ثم وجدت لانا نفسها تقول: كونان برفقته أيضاً.

- ماذا؟ رد «شان» باندهاش لم يسبق له أن أظهره.

نظرت «مزال» إلى لانا قائلة: أخبريه بشأن كونان يا لانا.

عندما شرحت له الأمر برمته، جلس على الكرسي يهز برأسه.

- يا إلهي! ما هذا الوضع؟ ثم استدار إلى «مزال» فجأة. ليس لديك أدنى فكرة إن تمكن «تيتشر» وكونان من الهروب؟

- هذه هي المشكلة. لم أستطع أن أعرف، ولا حتى أي معلومة. لو أننا نعرف بذلك فقط.

- أتعتقدين أنهم في «النظام الجديد» عرفوا حقيقة «تيتشر»؟

- هذا ما أخشاه، أجابته «مزال».

عبس «شان» عندما سمع ذلك وقال: بما أنهم يعرفون، ربما علينا أن نعقد اجتماعاً طارئاً ونخبر الجميع بالأمر. لو يعرف جيل اليافعين واليافعات حقيقة «دايس» و«النظام الجديد»...

قاطعته لانا: لكن ليس قبل أن نسمع خبراً عن «تيتشر».

رد «شان» بالإيجاب: لا، بالتأكيد لا. لن يجدي نفعاً أن نُفشي سره ما لم يكن قد أُفشي. «دايس» سيتراجع عن وعده، وستبدأ هناك أكبر عملية بحث. صراحةً، لا أعرف ماذا علينا أن نفعل. الوضع خطير.

***

في صباح ذلك اليوم ألصقا بَدَنَي القاربين، وباشرا على الفور بصنع الشراع. كان مثلثاً كبيراً خططا لصنعه من خطّاف ثياب استوليا عليه في ليلة الغارة على المستودع. وبما أن الوقت ضيق الآن، استخدما بدلاً منه لفافة البلاستيك الرمادية اللون. جعلاها بسرعة وبنفس الإسمنت المستخدم في البدن موصولة بحبل خطافها، كما أنها ثُبِتَت بشكل دائم برباط حذاء وبعض الإسمنت إلى عارضة الصاري.

هنا تمتم «تيتشر». سيتمزق عند أول عاصفة تهب علينا. لكنه على الأقل سيبعدنا عن هنا، ويُنقذنا لثلاثة أيام.

المصباح الوحيد الذي كان بحوزتهما استُهلِك لإيقاف «تيليت»، لكن «تيتشر» أضاء الموقد في مُسخّن الطعام المؤقت، وتمكنا بوهجه المضيء أن يعملا حتى وقت متأخر في الليل.

عادا إلى الكدح مجدداً عند بزوغ أولى إشعاعات الفجر الشاحبة. كانا يُدعّمان الصاري، ويصنعان من لفافة الحِبال التي كانت في مستودعات المرفأ حبالاً له.

وفي وقت متأخر من صباح ذلك اليوم، اقتربت منهما حوامة، وحلقت لدقائق طويلة ومرعبة على علو منخفض فوق الشق مباشرة.

سمع كونان هدير الحوامة في الوقت المناسب، ما جعله يقطر القاربين بالزاوية، ويغطيهما بالشراع الرمادي، ويغمر البلاستيك بطريقة تمويهية بكمية كافية من الحصى والرمال. كانت المعدات بإصرار من «تيتشر» قد كُوّمَت بعناية في مكان واحد وحُجِبَت بغطاء. ومع ذلك كان الفاصل الزمني الذي سبق إبحار السفينة نحو الساحل مثيراً للقلق.

عندما خيّم الظلام مجدداً، جالباً معه المد الزاحف، كان لديهما أعمال كثيرة غير منتهية. لكن المركب أُنجِز استنساخه تقريباً، والشراع على الرغم من بساطة تصميمه، فقد بدا قابلاً للاستعمال. أما الأمور الأخرى فيمكن لها أن تنتظر.

على ضوء الموقد شرعا بسرعة بِرَصّ الأغراض التي جلباها معهما -إمدادات الطعام، وزجاجات الماء، وصندوق الأدوات، والأكياس البلاستيكية، والبطانيات والملابس الاحتياطية، ولفافة الحبال والمعدات من المرفأ. ومن أجل عمليات الإصلاح الطارئة حملا الإسمنت الباقي وقطع الخردوات البلاستيكية.

عندما طاف المركب المستنسخ، ثبت كونان المحرك في حجرته المخصصة، ووضع البطاريات بالقرب منه كي لا تنجرف إلى البحر. نظر نظرة تفحص أخيرة، ثم وضع الموقد على الأرضية بالقرب من البوصلة، ليتمكن من رؤية المؤشر عندما يستحيل الليل ظلاماً حالكاً.

- قال له «تيتشر»: هل أنت مستعد؟

- أعتقد ذلك سيدي. تملكه في تلك اللحظة شعور غريب كان يفوق قدرته على الوصف.

- ثم أضاف «تيتشر»: إذن من الأفضل أن نُصلي. أمور كثيرة لا تُعوّل على سلامة شخصين بقدر ما تُعول على نجاح الرحلة بحد ذاتها.

ساد صمت بينهما ثم قال الرجل العجوز بهدوء كأن المستمع يجلس بالقرب منه:

- أرجوك ساعدنا وأرشدنا في طريقنا، أنت العليم بحالنا، وتعرف ما سيحدث إن فشلنا.

كانت تلك المرة الأولى التي يشعر فيها كونان بحجم المسؤولية المخيفة التي يحملها «تيتشر» فوق كتفيه الهزيلين. في تلك اللحظة، كانت صدمته بحقيقة مسؤوليته أشبه بصدمة جليدية. لولا معرفة «تيتشر»، وخبرته في تولي المستقبل، ما الذي كان سيحل للناجين من التغيير؟

عندما بدأ يجر السفينة، ويدفعها جاهداً لتعوم في ظلام الشق، تراءت له رؤية مفاجئة عن الليلة الطويلة الوحشية لماضي الإنسان. لولا «تيتشر»، ولولا معرفته الواسعة بكل الأمور، أما كان الإنسان سيعود ليغوص في أعماق تلك الليلة البدائية؟ أم كان سيتدبر أمر نجاته في الوجود؟

جلبت له الفكرة الأخيرة صدمة أخرى، فقد حصل على ما يكفي من المعرفة تؤهله لأن يستنتج من خلال مجريات الأمور أن نهاية الإنسان الأبدية قريبة. انتابه للحظة شعور بالخدر، وكانت السفينة في تلك اللحظة بالذات قد اختارت أن تنغرز في الشق. بلغ طولها الآن من دون حساب دفة القيادة الرديئة ثماني وعشرين قدماً بدلاً من أربعة عشر.

حاول كونان جاهداً في المد العميق ولبضع دقائق رهيبة أن يحررها من الشق. وعندما انزلقت فجأة في البحر، أصبح جلياً بالنسبة إليه أهمية الدور الذي أُوكِل إليه. شعر بحاجة إلى الصراخ، لكن لم يكن لديه متسع من الوقت لذلك. كانت نسمات الهواء تضغط على المقدمة، فاضُطر إلى القفز إلى السطح وتشغيل المحرك.

وبعد بضع دقائق أدخل «تيتشر» العارضة في الفتحة المخصصة وأطلق الشراع. فانتفض المثلث البلاستيكي الضخم مُنذراً بالخطر إلى أن اعتدل وحلق أفقياً. ثم رفرف بثبات، وفجأة مال المركب، وارتفعت المقدمة، واندفع إلى الأمام بضغط من الرياح.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخوض فيها كونان تجربة مركب شراعي. لكن عندما تَطَلَع إلى الجرف سرعان ما تلاشى شعور الإثارة الذي انتابه. بدا تحت سماء الليل كأنه كتلة غامضة من الظلام الداكن، لكنه بطريقة ما كان كوحش رابض يشكل تهديداً.

أومأ برأسه محدثاً نفسه أنه في منتهى الحماقة. فالجرف لم يعد يمثل خطراً وهما يبتعدان عنه. كانت الحوامات التي عاودت البحث مجدداً في الصباح الخطر الحقيقي لهما.

– حدّثه «تيتشر»: ينبغي ألا نكون حيث يبحثون. تولَّ مقبض الدفة يا

بني. حافظ على الوجهة التي تسير فيها طالما أن الريح تهب من يسارك. عندما تتعب سأتولى القيادة عنك.

- هل «هاي هاربور» في هذا الاتجاه؟ سأل كونان وهو يحرك المقود بثبات.

- لا، إنه في الاتجاه الآخر. لكننا لن نحاول الوصول إلى هناك الليلة. اتجاه الريح شمالي غربي، وهي بذلك تبعدنا عن الشاطئ.

- ماذا عن المحرك؟

- دعه يعمل بالسرعة القصوى. وهو بكل الأحوال لن يدور أسرع من ذلك، لكن لن يضرنا أن نجتاز أميالاً إضافية. مع حلول الفجر ينبغي أن نبتعد عن الساحل بأقصى ما لدينا.

9- المطاردة

كان قد مضى ساعة على بزوغ الفجر عندما أدرك كونان أنه يسمع الصوت الخافت الذي لم يكن يرغب بسماعه. كان هدير طائرة بعيدة من دون طيار، لكنه أفسد الأمل في أن يجلب البُعد أي قدر من الأمان. كانت اليابسة قد أصبحت خلفهما الآن، والريح التي قادتهما بثبات لساعات عدة بدت منعشة. تحت الشراع المثلث الكبير أبحر المركب الذي صُمم كما خُطِط له تقريباً.

لم يقوَ قلبه أن يوقظ «تيتشر» من النوم. كان الرجل العجوز المغطى بالبطانيات ما يزال نائماً في الركن الأيمن من المركب. نظرة واحدة على ذلك الوجه المليء بالكدمات جعلت كونان يَعدل عن إزعاجه ما لم تحلق الطائرة على مسافة أقرب.

بدأ يصلي من أجل أن يبتعد صوت هدير الطائرة. وبالفعل ابتعد لفترة من الزمن، لكنه كان يعاود الاقتراب، ويعلو أكثر، حينها أدرك أن الحوامة تحلق بمسار متعرج لتغطي أكبر مساحة ممكنة من البحر. وقد ظلت لوقت طويل غير مرئية في الضباب الكثيف. لكنه فجأة استطاع أن يحدد مكانها، وبدت مثل نقطة متحركة، كان سيظنها طائراً بحرياً لولا صوت هديرها.

استدار لينادي «تيتشر»، فوجد أن الرجل العجوز يجلس منصتاً باهتمام. أمره فجأة:

- توقفْ عن الإبحار بشكل تدريجي، ثم أطفأ المحرك. علينا أن ننزل الشراع ونضعه فوقنا.

أخفضا الصاري الطويل على عجل، واستطاعا مد الشراع الرمادي فوق المركب بأكمله. قبل أن يتمكنا من تثبيته بأمان، كانت الطائرة تحلق بعيداً، على بعد بضع مئات من الياردات من الميناء.

بالكاد كان كونان يصدق ما تراه عيناه بينما كانت الطائرة تكمل طريقها من دون أن تعير وجودهما أدنى اهتمام. سأل حينها مرتجفاً:

- ما الأمر؟ أيعقل أنهم لم يرونا؟

- رد تيتشر: لا! هذا بفضل البلاستيك الرمادي. لونه مماثل للون الماء تقريباً. وأعتقد أنهم يبحثون عن قاربين، قارب يجر الآخر. لم يخطر ببالهم أننا فكرنا في أمر مختلف.

- لكن ما الذي سنفعله الآن؟ إنهم أمامنا، وإن رفعنا الشراع مجدداً، من المحتمل أن يُكتَشَف أمرنا لاحقاً.

- سنعتمد على المحرك. إن استمررنا في الإبحار لابد أن نصادف الضباب في مكان ما.

- رد كونان وهو يبحث عن المسافة الضبابية. إذن يمكننا الإبحار. أعتقد أن كُتَلاً من الضباب تظهر إلى اليسار من الميناء.

- هيا إذن. في هذه المرحلة تبرز أهمية رؤيتك. أنا ليس بمقدوري أن أرى شيئاً- يُفضَل أن أقول أشعر به- بمقدار أكثر من مئة ياردة خارج نطاقي.

أدار كونان المحرك، وتوجه بأقصى سرعة لديه إلى الضباب الكثيف. أصبحا في مهب الريح الآن. ومن دون الشراع بدا كأنهما يتسللان في البحر. كان كونان يتوقع عودة الطائرة في أي لحظة، ولم يكن قد مضى ساعات على طلوع الصباح حتى سمع الصوت مجدداً، لكن هذه المرة كانا متلاشيين بأمان في الضباب.

ساعد «تيتشر» وهو منهك القوى في رفع الشراع وسلمه دفة القيادة.

غطّ في النوم في اللحظة التي تمدد فيها إلى جانب المحرك. كانت هذه أول استراحة يحظى بها منذ ما يزيد على أربع وعشرين ساعة.

عندما استيقظ كان سواد الليل حالكاً لدرجة أنه لم يستطع أن يرى «تيتشر» وهو على بعد بضع أقدام منه عند مقبض القيادة. كان المحرك يعمل، والمركب يسير بهدوء في المسار الذي كان يسلكه في وقت سابق.

شق طريقه نحو «تيتشر» وتولى عنه القيادة وهو يقول مُتهِماً إياه:

– لماذا تركتني أنام كل هذا الوقت؟

– ضحك العجوز قائلاً: إنه السبب نفسه الذي جعلك تتركني أنام لوقت طويل الليلة الماضية. لكني كنت على وشك أن أناديك. ينبغي أن أحاول التواصل مع «مزال».

– أعتقد أن ذلك كان مستحيلاً في الآونة الأخيرة.

– أجل، إنها متوترة للغاية. يمكنني أن ألتقط رسائلها دائماً، حتى الرسائل الصغيرة التي لا تريدني أن ألتقطها. لكنها ما تزال إلى الآن تواجه صعوبة في التقاط رسائلي. آخر رسالة وصلتها مني أننا كنا نحاول الهروب، لكنها لا تعرف ما الذي حدث بعد ذلك. ينبغي أن أتواصل معها الليلة وأحذرها.

– تحذرها؟ من أي أمر تحذرها؟

– إنهم يواجهون الصعاب في «هاي هاربور». وهروبنا سيزيد الأمر سوءاً لدرجة سيصبح إيجاد حل أمراً ضرورياً. سأوضح لك ذلك لاحقاً.

تقدم «تيتشر» في الظلام نحو الأمام. فجأة شعر كونان بالاضطراب، تشبث بالدفة والخيبة تعتليه محاولاً أن يجد منطقاً وجيهاً فيما سمعه للتو. لكن ذلك لم يفضِ إلى تفسير منطقي. وفي نهاية الأمر، بعد أن أدرك شعوره بالجوع، بحث عن الطعام في الخزانة تحت الحجرة المثلثة، وأخذ بُلْغات «سندويشات» من عبوة مفتوحة، وتناولها بغير استمتاع. عندما عاد «تيتشر» كان كونان يفكر بالسمك النيء وأعشاب البحر.

– تمتم الرجل العجوز: حمداً لله أنني تمكنت من التواصل معها هذه المرة.

- ما الذي يحدث هناك؟ هل لمجرد أننا هربنا...
- كونان، أتذكر صبياً اسمه «أورلو»؟
- أجل سيدي. إنه الفتى الذي تشاجرتُ معه في الليلة التي كان الجميع ينتظرون الوصول إلى «هاي هاربور». لم يكن هنالك مغزى مما فعله سوى أنه أراد أن يفسد الأمر. بكل الأحوال تمكّن من التغلب عليّ، وأنا لم أستطع قهره.
- حسناً، يبدو أنه ما يزال يتغلب على الجميع، وما يزال يريد إفساد الأمور. إنه يرغب بالسيطرة على «هاي هاربور». وربما يتمكن من ذلك بمساعدة «النظام الجديد».
- ما تقوله ليس مُفرِحاً. لكن كيف؟
- إنني أحاول تقصي الحقائق يا كونان. لكن دعني أخبرك هذا أولاً. لقد كُشِف أمرنا.
- لا!
- لقد حدث ذلك صباح اليوم بعد أن خلدتَ إلى النوم مباشرة. طائرة مروحية عادت مجدداً.
- سمعت صوتها حينها. لكنني ظننت أننا في مأمن بين الضباب.
- وأنا أيضاً. لكننا اصطدمنا بصدع عندما كانت الطائرة في السماء. وعدنا إلى الضباب بعد بضع ثوانٍ، وهذا الوقت كان كافياً لتحلق الطائرة بشكل دائري ويُكتشف أمرنا. وهم الآن يعرفون من نحن وإلى أين نتجه.
- لكن ألن نتجه إلى «هاي هاربور» مباشرة؟
- لا، ليس ونحن على هذه الحال. أمامنا بحر خطير نعبره، ولا نملك مخططات تساعدنا على ذلك. لن نستطيع النجاة في هذه الحالة. إننا نحتاج إلى شراع أفضل، وهيكل أقوى، ودفة قيادة أكثر كفاءة، ولوح مركزي مناسب...

كونان كان يعلم أنهما بحاجة إلى كثير من التحسينات ليصبح المركب قابلاً للإبحار. كان يظنه متيناً، لكنه أدرك الآن أنه من دون التقوسات

الإضافية يمكن أن يتفكك البَدَن بسهولة. كما أن العارضة المتشققة كانت تشكل خطراً لهما. وقد أُنزلت على الفور، وثُبِتت في مكانها المخصص. إن تصادمت مع أي جسم مغمور قد تُمَزِق أسفل القارب.

– قال «تيتشر»: ينبغي أن نعثر على جزيرة بسرعة. ثم نُصْلح المركب وننطلق في طريقنا مجدداً قبل أن يعثروا علينا. لأنهم سيعاودون البحث. حدسي يخبرني أنهم سيستدعون سفينة المسح على الفور.

– ماذا بشأن القارب الآخر؟ لا أقصد سفينة الصيد...

– تقصد سفينة المقايضة؟ سفينة «دايس» في «هاي هاربور»؟ سيتركونها هناك بالتأكيد. ألا ترى؟

– تجهم وجه كونان في الظلام وقال: تقصد أنه عين خفية لهم؟

– بالضبط. هذا ما يجعلني أشعر بقلق شديد. إن استطعنا الإفلات، وتمكنا من الهروب منهم كلياً والوصول إلى «هاي هاربور»، فإن فرصتهم الوحيدة في الإمساك بي ستكون من خلال «دايس». لكن ينبغي على «دايس» أولاً أن يستحوذ على المكان. لا يمكنه أن يفعل ذلك بمفرده. لديه قليل من الرجال فقط، ولا يجرؤ على القيام بأي إجراء جديد.

– جديد؟ تقصد أنه يقوم بالألاعيب؟

– أجل، لكن كان ذلك قبل أن يعلم بأمر هروبنا. إنني متأكد أنهم أخبروه بشأننا. لذلك، الخطة التالية هي الاستعانة بمساعدة «أورلو» من أجل تنظيم قدرة كل الشبان اليافعين الساخطين الذين يكبرون بوحشية. أتفهم ما أنوي فعله الآن؟

– أطلق كونان صفيراً. يا لها من فوضى! كم من الوقت سيستغرق منا الإبحار إلى «هاي هاربور»؟

– تنهد الرجل العجوز. لا أملك إجابة على سؤال كهذا يا بني. لو أننا على أهبة الاستعداد للإبحار في هذه اللحظة، والريح تجري كما يشتهي مركبنا، سيستغرق منا الأمر ثلاثة أسابيع. لكن الرياح ليست حسب

رغبتنا طيلة الوقت، ونحن لسنا مُستَعِدَين للإبحار. لذا، صلّ لربك أن نعثر على جزيرة في الصباح.

ظل كونان طيلة اليوم التالي يراقب بأمل رؤية لطخة رمادية داكنة في الضباب من شأنها أن تشير إلى اليابسة. كان واثقاً أن قطعة من اليابسة ممددة في مكان ما، هنالك عشرات القطع الصغيرة منها. وقد عاش مدة من الزمن فوق قطعة منها، وعاش «تيتشر» على قطعة ثانية. وبعد أن عثر عليه «النظام الجديد»، رأى من سطح سفينة خفر السواحل العديد منها. تلك الأجزاء من الأرض على حد علمه كانت مبعثرة على مسافة مئات من الأميال حول محيط البحر العلوي.

لماذا لم يتمكنا من العثور على اليابسة حتى الآن؟

لكن الشفق توهج قبل أن يعثرا على أثر لها أو على أي طائر بحري جوال. وبعد أن توقفت البطارية التي أدارت المحرك لفترة أطول بكثير مما كان يحلم كونان، وضعها جانباً وربط بالمحرك إحدى البطاريتين الباقيتين.

- أسدى «تيتشر» نصيحة له: من الأفضل أن نوفر الطاقة. فقد نحتاج إليها فيما بعد. ينبغي أن نكون على مقربة من سلسلة الجزر الآن، هذا إن لم نكن قد تجاوزناها.

من أجل أن يحافظا على مسارهما ضمن نطاق السلسلة، غيرا المسار إلى الغرب أكثر، وأبحرا طيلة الليل بعكس هبوب الرياح. ومع إشراقة الصباح الأولى، بدأ كونان يبحث مجدداً عن لطخة رمادية في الضباب.

كان هذا يومهما الثالث في عباب البحر. ومع الضباب المتزايد في الكثافة، والمياه العميقة، وخطوط الضباب الطويلة العرضية، أصبح كونان على دراية بخط الطول المتغير. وكانت مألوفة بالنسبة إليه الأصوات العميقة التي تلعلع في السماء الشمالية الغربية. لقد شاهد أمراً كهذا مرات عديدة في السنوات الخمس الماضية، ولطالما كانت تجلب معها الطقس السيئ.

استطاع طيلة الصباح أن يكبح جماح قلقه بالاعتقاد أن الجزر كانت

على مقربة منهما وأنهما سيحظيان بواحدة عما قريب. لكن ذلك اليوم انتهى إلى مساء آخر، ولم يلمحا أثر يابسة. في هذا الوقت تحولت الريح إلى همس خفيف. وكانا يفقدان القدرة على التقدم، وبدأ المركب بالتخبط في تضخم الأمواج المتصاعد.

ثم رأى كونان رأس «تيتشر» الأبيض يرتفع متخذاً وضعية الإصغاء.

- سأل كونان، ما هذا؟

وقبل أن يجيب «تيتشر»، رأى البقعة البعيدة تزداد بعداً عن مركبهما.

- رد العجوز باعتماده على حاسة السمع التي اعتبرها كونان منذ مدة طويلة على أنها ظاهرة: إنها سفينة المسح. أعرف من صوتها. هيا، شغل المحرك، وأضاف بسرعة: علينا أن نتحرك ونهرب من هنا. إنها فرصتنا الوحيدة.

أبحرا في المسار الجديد الذي سلكاه بقوة المحرك فوق تعرجات البحر الطويلة مع دفقات من الرياح لا تكفي لتحريك الشراع. حدق كونان مجدداً بسفينة المسح. مرت عليه لحظة رآها بوضوح مخيف يتناقض مع ظلمة السماء المنخفضة خلفها، ولم يكن هناك أدنى شك من أنهم كشفوا أمرهما. كانت السفينة في تلك الأثناء تنحرف في مسار آخر متجهة نحوهما. ثم لم يعد يراها في ظلام العاصفة المدمرة التي كانت تكتسح العالم برمته.

فجأة سمع هبوب الريح. وفي نفس اللحظة أسرع هو و«تيتشر» للإمساك بالشراع وإنزاله قبل أن تمزقه قوة الرياح. تمكنا من فعل ذلك، وثبتاه في مكانه، وأمّنا الصاري، بينما تراجعت السفينة وغارت في المياه بجنون.

أصبح صوت الريح صراخاً. كانت أمواج البحر تصفق المركب وتغمره بالماء. بدا أن عاصفة عنيفة ترمي بهما إلى الأعلى، وقبل أن تقذف بهما نزولاً، سمع كونان صوتاً حاداً لم يتمكن من التعرف عليه. لكن عندما سعى للحصول على دعم الصاري الذي تم تأمينه إلى سطح

المركب لم يستطع العثور عليه. لقد حطمه البحر أو الريح، واقتلعا معه الشراع.

بعد ذلك سمع موجات خافتة من صوت «تيتشر» في مهب الريح. كونان لا يمكننا أن نبقى عائِمَين في البحر. أحضرْ واحداً من الأكياس وثبته إليك.

وبينما كان يتألم على آمالهما المحطمة، لم يدرك على الفور ما قاله «تيتشر». وفي عز كدحه من أجل أن يبقي المركب في اتجاه الريح، خطر له أن «تيتشر» قصد الأكياس البلاستيكية التي تحوي البطانيات والملابس.

بدأ يتلمس طريقه للوصول إلى واحد منها. وعلى الجانب الخلفي من المركب بدد ضوء كشافٍ الظلام المحيط بهما، ومرّ حيث يقفان، ثم عاد متوهجاً ليتفحصهما بدقة. كانت السفينة قريبة منهما لدرجة أن كونان ظن أنها ستصطدم بهما. لكنها غاصت مجدداً في الظلام مثل الشبح، ولم يرَ الضوء الكشاف مرة أخرى.

لمست يده الحُرة واحداً من الأكياس. حاول أن يلتقطه بينما كان يقاوم مقود القيادة بيده الأخرى. أمسك بالكيس ثم أفلت منه فجأة، فقد ارتطما بجسم صلب في تلك اللحظة. كانت قوة الارتطام شديدة جداً لدرجة شعر فيها أن المركب ينفصل عند مركز اتصال القاربين، وتسببت بقذفه إلى الزبد المتطاير والبحر الهائج.

حاول أن ينادي «تيتشر» لكن الماء غمره كلياً. سحبه بقوة، وجعله يتلاطم بين الأمواج، وإلى الأبد أصبح دمية تقذفها كيفما تشاء.

10- الجزيرة

ترك المد المنحسر كونان مرمياً فوق شاطئ رملي مغطى بالحصى وتتوزع فيه الصخور. عند أول ضوء خافت أبصرته عيناه أدرك تقريباً ما حصل، لكنه لم يستطع لبعض الوقت أن يتبين علاقة الحصى مع أي شيء آخر. كانت بالنسبة إليه مجرد أشكال لا معنى لها، ومع ذلك بدا أنها على صلة قرابة بالزئير الذي يدوي في رأسه، وبزئير العاصفة التي تلاشت تقريباً.

عندما اشتدت حدة الضوء، رأى عبوة طعام مدفونة جزئياً في الرمال. وعلى بعد منها ارتمت زجاجة بلاستيكية تشبه الزجاجات التي سخّرها لتعبئة الماء. ثم بدأ بالاستطلاع حوله بتمهل. استفاقت ذاكرته بسرعة، وتهادى واقفاً على قدميه يصرخ بصوت أجش.

- «تيتشر»! «تيتشر»!

لم يلقَ رداً منه. مشى بضع خطوات إلى الأمام وتوقف لأنه ما من مكان محدد يقصده. انتصبت أمامه كتلة صخرية ضخمة. ترامت حول قاعدتها صخور أخرى، وكان البحر من حولها. البحر المظلم الذي تخفي خيوط ضبابه الممزقة بالرياح كل الآفاق.

- صرخ مجدداً بأعلى صوته. «تيتشر»!

لم يحظَ برد أيضاً. بدأ يبكي ويحوم حول الصخرة بعنف. وبعد مضي لحظات راح يضرب يديه المطبَقَتَين بالجرانيت البارد. بدأ يصرخ كأن الصوت الذي أنقذه ذات مرة خدعه واحتال عليه. لماذا فعلتَ هذا بنا؟ لماذا؟ لماذا؟ ما الدافع إلى ذلك؟

كان تدفق صراخه المكروب نابعاً من شعوره بالعجز التام، فقد ضاع منه كل شيء. ليس «تيتشر» فقط، بل عالمه المحيط الذي خلقه «تيتشر»، بما فيه لانا.

آخر أمر توقعه في تلك اللحظة أن يأتيه رد من الصوت. لكنه تحدثَ فجأة، بهدوء ووضوح جلي.

- قال الصوت: كونان. ثمة منطق ومعنى في كل شيء. انظر حولك.

ولّد له ذلك صدمة استفاقة لم تحدث له من قبل. كان قد نسي الألم الجسدي الذي سببته له الأمواج. راح يبحث في المكان مرتجفاً. وعلى الفور رأى، وكانت البقعة الحمراء أول أثر يراه، وكان أمامها عند حافة المد الصخرة التي لم تكن صخرة على الرغم من أنها بدت كذلك. رأى صخوراً لا حصر لها مبعثرة في أنحاء البحر، وفي القمة عند كل جانب، وكانت هذه مجرد كتلة تشبهها. حقيقة الأمر أنها كانت كيساً من البلاستيك. والبقعة الحمراء التي لفتت انتباهه هي الصليب الموسوم على جبين «تيتشر».

في غضون لحظات، حمل «تيتشر» ووضعه بالقرب من قاعة الصخرة، وجرده من ملابسه الرقيقة، ثم دثره ببطانية كانت في الكيس. بدا أن السوائل قد نفدت من رئَتَي الرجل العجوز، وبأعجوبة استمر بالتنفس. لكن النَفَسَ كان ضعيفاً، وكانت يداه مُتَجَمِدَتَين.

تجمد كونان عندما رأى علامات المد تطال الصخرة. كان المد حينها يتسلل بالفعل، وحالما يبلغ الذروة ستنغمر هذه القطعة الصغيرة من اليابسة بعمق يزيد على ست أقدام من الماء. وحدها الأجزاء العلوية من الصخرة ستكون فوق مستوى المد.

كان اكتشافاً تقشعر له الأبدان. لكن الحقيقة أنه قد سمع الصوت مجدداً، من الممكن القضاء عليه في خضم وضعهما البائس. لكنه فكر أنه ينبغي عليه فعل شيء ما. ينبغي عليه ذلك.

نظر إلى الكيس وإلى «تيتشر»، وخطر بباله أنه في حال أفرغ الكيس من محتوياته، بإمكانه وضع جسد «تيتشر» الطويل بداخله. بالتأكيد كان جسده طويلاً لدرجة أن كونان ثبته تحت إبطيه. وهكذا يظل «تيتشر» جافاً ومعتدل الحرارة، إن تمكن كونان بطريقة ما من رفع رأسه وكتفيه فوق الماء.

لم يكن ممكناً بالنسبة إليه أن يتخيل عدد موجات المد التي سيتعرضان لها في محاولة النجاة هذه. كان يفكر فقط أن عليه أن يُنفذ المحاولة. وأعقب ذلك إدراك حقيقة أنه من أجل البقاء على قيد الحياة، سيحتاجان إلى كل الأغراض التي يمكن له أن يعثر عليها، والتي قُذِفَت إلى هنا من المركب. جعلته هذه الفكرة يندفع إلى التقاط الحاجيات المرمية على الأرض، ثم تجميعها بالقرب من «تيتشر» قبل أن يطيح بها المد.

وجد العديد من زجاجات الماء، وبعض علب الطعام، وعلبة من الإسمنت الذي أصبح عديم النفع الآن، وما بقي من لفافة الحِبال التي استُخدِمَت في صنع المركب. ساعده العثور على اللفافة في حل مشكلة كانت تؤرق باله.

بينما كان يفكر كيف يمكن أن يَلف الحبل حول الصخرة ليرفع «تيتشر» فوق مستوى المد، التقى بالطيور البحرية. جنحت ثلاثة نوارس إلى قمة الصخرة، ثم حلقت على علوّ منخفض، وبدأت تحوم حوله بشكل دائري، وتزعق مبتهجة.

أوقع الحبل من يده، ومدها نحو الطيور غير مصدق ما تراه عيناه. لا يعقل هذا، لكنه مشهد حقيقي.

همس باسمها بعد أن تعرّف عليها. مارا، جيدي، ريلا، ماذا تفعلن هنا؟ كيف تمكنتن...

حدّق عالياً بالقمة. هل من الممكن أن تكون هذه واحدة من الجزر الصغيرة التي كانت تحيط بموطنه؟ استدار بعد ذلك ليعاين الضباب. استطاع في اللحظة الحالية أن يجد ما كان يسعى إليه، ليس في المكان الذي تخيل أن يجد فيه مبتغاه، بل في الاتجاه المعاكس على الأغلب، كما

استغرق منه الأمر بضع لحظات إضافية لتخمين مسار الاتجاهات الصحيح ويؤكد الحقيقة لنفسه.

قبل عامين من الآن، كان في الجزيرة الغربية حيث وصل إليها بعد رحلة طويلة وشاقة بحثاً عن الأخشاب. الاختلاف الوحيد أنها بدت مختلفة كلياً في ذلك الوقت. كان قد وطأها في المرة الأولى من الجانب الآخر، حيث كانت ترتفع أرض من تحته في المكان الذي يقف فيه الآن. بَيْدَ أن العواصف في العامين الماضيين دمرت كل شيء، وخلفت فيها الصخور.

سرعان ما بددت نظرته الخاطفة إلى «تيتشر» شعور الارتياح السريع والبهجة باكتشاف الجزيرة. كيف يمكن له أن يعبر بـ«تيتشر» المد المُهَدِد لحياتهما إلى بر الجزيرة الرئيسية الآمن؟ لم يكن وارداً ضمن خططه أن يَقطره فوق بعض حاويات الماء الفارغة. فالمسافة كبيرة جداً، وتيارات المد شديدة القوة.

ثم اهتدى على عجل إلى الطريقة التي سيحل بها الأمر. الإجابة تكمن على الجزيرة الرئيسية.

فجأة شعر بارتياح عندما فتح «تيتشر» عينه السليمة، وبدأت تراقبه بفضول.

- همس الرجل العجوز، ما الذي تنوي فعله يا كونان؟

التقط كونان لفافة الحبال التي أوقعها من يده وأسرع إلى تيتشر مُفصحاً له عما ينوي فعله. إنني أخطط للوصول إلى «هاي هاربور».

***

لم يستغرق منه تجميع الحاجيات التي التقطها وحماها من المد سوى بضع دقائق. لكنه احتاج إلى مزيد من الوقت لتكديس هرم من ست أقدام من الصخور عند قاعدة الصخرة الكبيرة، وتثبيت «تيتشر» إلى واحدة من أذرعها المتعرجة. عندما هبط من الهرم، كان المد قد وصل إلى ركبتيه.

– قال لـ«تيتشر»: عليك أن تتمسك جيداً إلى أن أعود. إن عارَضَتني الرياح اليوم، لن أتمكن من إنجاز المهمة حتى يحين الغد. تَمَسّك جيداً.

– على الرغم من ضعفه ومن الساعات الطويلة الخطيرة التي تنتظره، استطاع الرجل العجوز أن يضحك ممازحاً كونان. سأنتظرك هنا كما كَوّمْتَني في الكيس وربطتني. هون عليك يا بني، ولا تقلق لأمري.

تفحص كونان البحر، ثم بدأ يعوم فيه ببطء وثبات، متجهاً إلى تيار المد ليسمح له أن يجرفه. كان يجر خلفه زجاجة ماء فارغة مربوطة بحبل طويل ملفوف حول خصره من أجل أن يتعلق بها في حالة الطوارئ. كانت بمنزلة ضمان لم يكن يملكه في رحلته الأولى. كان على وشك أن يغرق حينها، وقد استغرقت منه رحلة الوصول إلى القمة والعودة يومين. ولولا أن الرياح لم تنقلب ضده، وتقلّب معها البحر، لأنجزها بنصف الوقت فقط.

في تلك اللحظة بدا أن كل شيء يسير لمصلحته. وهذا ما دفعه أن يسرع في السباحة بعض الوقت. ثم تباطأ مرة أخرى، علماً أنه سيكون من الأفضل له أن يدخر قوته للمعركة التي سيواجهها عندما تتغير الظروف. فمن الممكن أن تتغير بلمح البصر، وكان يعلم أنه لم ينجح بخداع «تيتشر» أن بإمكانه العودة غداً. ذلك أن الطقس يمكن أن يبعد بينهما لأيام عديدة. لكن على الأقل كان لدى «تيتشر» زجاجة من الماء معلقة بالقرب منه، وعلبة رطبة من بُلْغات «سندويشات» النظام الجديد. لقد اتفقا فيما بينهما على أن قليلاً من ماء البحر قد يُحسن من نكهة الطعام.

كان كونان قد قطع نفس المسافة المؤدية إلى هدفه، عندما بدأ يفكر، فجأة ومن دون سبب واضح، بأميال المنحدرات الشاهقة المرتفعة خلف «إندستريا». لماذا بدت شديدة العداء والوعيد؟ هل لأن الشق الممتد تحت المدينة يصل إلى الشق حيث صنعا مركبهما المستنسخ؟ توصل إلى يقين أن ذلك ما سيحدث عندما تذكر كل ما كان يقوله «تيتشر».

ما الذي سيحدث عندما يتشقق الصدع ويغوص الساحل بأكمله في أعماق البحر؟

كان «تيتشر» قد جاء ذات مرة على ذكر تسونامي، وحاول حينها أن يخفي مخاوفه. تسونامي هو موجة تسببها صدمة. صدمة عميقة في قشرة الأرض مخلّفة تموجات من المد والجزر.

في غمرة أفكاره لَطَمَتْ وجهه موجة من مياه البحر، ولم يتمكن من تفاديها. كان قد تذكّر أمراً قرأه منذ سنوات، وكان يتمنى لو أنه ينساه.

موجات الصدمة هائلة الحجم. يمكن أن تكون كُتلاً جبلية، ومنحدرات هائلة من المياه تعبر بسرعة تفوق التصديق. يمكن أن تجتاز المحيط في وقت قصير جداً مخلّفة الدمار في أماكن تبعد آلاف الأميال.

ظلت هذه الرؤية ترافقه، وأفسدت تقريباً فرحته بالوصول عندما تعثر على الشاطئ، جائعاً ومنهكاً من التعب، بجزيرة مسوّرة تشبه القلعة، كانت فيما مضى موطناً له.

التقى بمزيد من الطيور هنا، وكانت قد انضمت إلى المجموعة التي لحقت به. كان مضطراً للتوقف قليلاً ليلقي التحية عليها، قبل أن يسرع الخطى إلى كومة معدات الإنقاذ التي جمعها على مر السنين، وطمرها تحت الصخور ليطمئن باله أن معدات لا تقدر بثمن كهذه كانت في مأمن. وقد كانت كذلك بالفعل. وبعد أن اطمأن عليها، نظر حوله نظرة حب. كان من الصعب أن يصدق أن بضعة أسابيع فقط قد انقضت على مغادرته. بدا كأنه ابتعد لسنوات عديدة. فقد تسببت العاصفة ببعض الأضرار في الجدار الخارجي وواحدة من مصائد الأسماك، لكن الأمر كان متوقعاً بالنسبة إليه، وساعة من العمل تكفيه ليصلح الأضرار.

فجأة أدرك شعوره بالجوع، وتذكّر في الوقت نفسه ما حدث في اليوم الذي أُبعِدَ فيه عن هذا المكان، فدلف على عجل إلى كوخ التخزين، وبدأ يقلّب كومة من الأعشاب البحرية المجففة ورقاقات الخشب. وقد شعر حينها بارتياح شديد. فالطبيبة «مانسكي» وقبطان السفينة اللذان استمتعا كثيراً بتناول السمك المدخن، غفلا عن كومة كبيرة منه. أكل بنهم قطعاً عديدة من السمك، وتمدد فوق الأعشاب البحرية لينال قسطاً من الراحة.

ربما انقضت ساعتان بعد ذلك عندما خرج من الكوخ يشعر بتحسن كبير، وراح يبحث عن الشمس المختبئة خلف الغيوم الملبدة. وعندما رآها، اندهش لمعرفة أنها كانت قد تحركت قليلاً فقط إلى ما بعد موقع الظهيرة. هل تمكن من إنهاء السباحة من موقع الصخرة بانقضاء نصف صباح فقط؟ مما لا شك فيه أنه فعل ذلك.

كانت أمامه فترة ما بعد الظهيرة بأكملها. وفي حال كانت الظروف مواتية، فسيكون لديه متسع من الوقت ليحضر «تيتشر» إلى هنا قبل حلول الظلام.

أمضى كونان عدة دقائق يتفحص بتأنٍ مزاج الطقس والبحر، ثم بحث على عجل على لوح التزلج القديم الذي كان أعز ما يملك وآخر المقتنيات التي وجدها. في غضون لحظات كان يقف فوقه في الماء مستعيناً بمجداف مصنوع من لوح خشبي ليساعده على الوصول بسرعة في اتجاه الصخرة.

عاد في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم. كان «تيتشر» ملفوفاً مثل المومياء في الكيس البلاستيكي ومثبتاً بإحكام إلى الحافة. كان الرجل العجوز ما يزال في قمة ضعفه، يتكئ على واحد من الجدران الواقية، ويتطلع حوله باستغراب شديد. بدأ يحدّث كونان بصوت منخفض:

- إذن بهذه الطريقة طوّرت مجموعة الصخور المنحوتة! ولكي تتمكن من نقل هذه الأطنان من الصخور، لابد أنك عملت على ذلك طيلة الوقت منذ لحظة وصولك إلى هنا.

- أجل سيدي.

- عدّل «تيتشر» رقعة القراصنة التي نجت بأعجوبة من كل أعمال العنف التي تعرض لها. نظر ناحية اللوح المقوّس المحجوب في الجدار قائلاً: أعتقد أن هذا اللوح سيشكل البَدَنَ الرئيسي للمركب الذي تظن أنه سيوصلنا إلى «هاي هاربور».

- أجل، أجل سيدي. ومَن بإمكانه أن يخفي أمراً عن «تيتشر»!

- وسيكون لوح التزلج مسنداً داعماً للمجذاف.

- هذا ما فكرت به يا سيدي.

- وقطعة القماش التي بحوزتنا -كم نحن محظوظان لأننا لم نصنع منها شراعاً آخر- علينا أن نجلب إبرة لخياطتها. يمكن أن نصنع إبراً من هذا وذاك، لكن أعتقد أن لدينا إبراً جيدة في صندوق الأدوات. يمكن للإبر أن توفر لنا الوقت، كما أن الأزاميل والأدوات الأخرى يمكن أن توفر لنا أسابيع في تشكيل اللوح. بكل الأحوال الوقت؛ هو الأكثر أهمية الآن. كل ساعة نوفرّها...

- أجل سيدي.

لم يأتِ «تيتشر» على ذكر كلمة واحدة عن تسونامي. لم يكن هنالك داعٍ لذلك. فهو يعلم أن كونان بات يفهم كل ما يحيط بهذا الأمر. وقد أصبح خطراً يهددهما مع انقضاء كل يوم. كان خطراً من بين العديد من الأخطار المُحدقة بهما. هنالك سفينة المسح التي ما تزال تبحث عنهما في مكان ما، والطائرات المروحية التي كان بإمكانها أن تحلق على هذا الارتفاع من القاعدة. وإن تمكنا من النجاة من هذه المخاطر، سيكون بانتظارهما، إن غادرا هذه المنطقة بعد فوات الأوان، ضباب هائل يقلقان بشأنه. كيف سيكون بإمكانهما الإبحار وسط الضباب وقد أضاعا البوصلة الوحيدة لديهما؟ كل ساعة يوفرانها..

- قال كونان: سأعود إلى الصخرة عند الفجر. حينها سيكون المد منخفضاً، وسيكون بإمكاني أن أتفحص المياه العميقة حيث قذفتنا الأمواج. لابد أن الصندوق مغمور هناك في مكان ما.

كان الفجر مجرد وعد مبهم أصبح وراءه عندما بدأ العمل في الصباح، لكنه كان المرشد الوحيد الذي لزمه لبلوغ الصخرة مجدداً. تملص منه صندوق الأدوات، لكنه وجد عبوات من الطعام وزجاجات ماء مربوطة باللوح، مع علبة إسمنت، ومجموعة متنوعة من الخردوات البلاستيكية كانا ينويان استخدامها في تدعيم المركب المفقود.

- خاطبه «تيتشر» الذي أمضى الصباح بتشكيل اللوح بواحدة من أدوات كونان الحجرية: لا تقلق. الصندوق هنا، وستجده في الانحسار الثاني للمد. إنني متأكد من ذلك.

«تيتشر» كان على حق. لقد عثر في صباح اليوم التالي على صندوق الأدوات ومحتوياته بحال سليمة. وفي طريق العودة إلى الجزيرة، وجد شيئاً آخر. كانت الطيور الحائمة فوقه قد لفتت انتباهه إليه، واضطر إلى التجديف بقوة مسافة ربع ميل بعيداً عن وجهته ليلحق به قبل أن تدفعه الرياح وتيار الماء بعيداً عن ناظره.

كانت عوامة نجاة يتمدد فوقها هيئة إنسان بشري وجهه نحو القاع. لم يضع كونان الوقت محاولاً تقديم المساعدة لذلك البشري. وبسرعة ربط حبل القَطْر بالعوامة، وبدأ يجدف غاضباً إلى الجزيرة التي كانت تتلاشى من بعيد. بيد أن صندوق الأدوات والعوامة المتأرجحة خففا من وتيرة التجديف. بدت كأنها معركة طويلة وشاقة في مواجهة الرياح قبل أن يصل إلى الشاطئ حيث وقف «تيتشر» ينتظره بقلق.

- بدأ يحدثه: عرفت أن ثمة خطباً ما، لكنني لم أتمكن من الرؤية لمسافة بعيدة. يا إلهي! ماذا لدينا هنا؟

سحب كونان المُتعَب العوامة إلى الشاطئ، ثم انحنى ليرفع الراكب الذي كان يستقلها. كان يعتقد أنه رجل، لكنه تأكد الآن أنها امرأة. ثم شهق مندهشاً. الطبيبة «مانسكي»!

- تمتم «تيتشر»: هكذا إذن! هذا يعني أن سفينة المسح قد غرقت في العاصفة نفسها التي ضربتنا. آه، إن طرق القدر الغريبة. أَدْخِلها إلى الكوخ الصغير يا كونان، وأنا سأحضر قنينة ماء وبطانية. إنها تعاني من الصدمة والعطش.

كانت الطبيبة «مانسكي» صاحية بما يكفي لأن تشرب بجشع من الزجاجة التي أمسكها كونان. لكنها لم تتعرف عليه إلا بعد مرور وقت قصير. وكان قد انقضى النهار كله تقريباً قبل أن تستجمع قواها وتخرج

من الكوخ. وبينما كانت تمسك بإحدى يديها بالبطانية، حدقت حولها بفضول، واقتربت ببطء من اللوح حيث كان كونان يعمل.

- بدأت تقول بصوتها الذي فاق نعيق الغراب شؤماً: ما هذا الجنون؟ من كان يظن أنني سأجد نفسي هنا بعد أن أنقذتك قبل بضعة أسابيع؟

توقفت الطبيبة «مانسكي» عن الكلام، وانتبه كونان إلى أنها تحدق بـ«تيتشر» الذي كان جلياً أنها لم تلحظ وجوده قبل قليل.

- صرخت «مانسكي»: أنت أيها العجوز الوغد، ما هذه الرواية المجنونة التي قلتها للمفوضين حتى جعلتهم يرسلون سفينتي بحثاً عنك؟ ثم بدأت ترتجف وعلا صوتها غاضباً. لقد ضاعت السفينة الآن، وأنت المسؤول عن ذلك. وضاع جميع الرجال على متنها. كل ذلك بسبب روايتك المعتوهة.

- قاطعها كونان قائلاً: مهلاً، من تظنين هذا الرجل؟

- أجابت الطبيبة «مانسكي»: أعرف من يكون. إنه «باتش» العجوز الشرير، وقد كان غير مؤهل لسنوات طويلة لأنه...

- لكن كونان أخبرها: إنه ليس «باتش». أقصد أن اسمه الحقيقي هو «برياك روا».

- ضحكتْ بصوت عالٍ: «برياك روا»! أهذا ما أخبرك إياه؟ هل أنت بهذا الغباء حتى تصدق ما قاله؟

- لكنك لا تفهمين... توقف كونان عن الكلام عندما رأى «تيتشر» يومئ برأسه ثم بدأ يتحدث إلى الطبيبة «مانسكي».

- إن أردتِ أن تناديني «باتش»، يمكنكِ ذلك حتماً. لكن أقترح عليكِ أن تعودي أدراجكِ وتنالي بعضاً من الراحة. لقد مررتِ بتجربة مريرة، وما زلتِ تعانين من ارتدادات الصدمة.

حدّقت به الطبيبة «مانسكي»، واستدارتْ غاضبة مُبتعدة عنه بخطوات متعثرة، وفجأة بدأتْ تتهاوى. أمسك بها كونان قبل أن تقع على الأرض وحملها إلى داخل الكوخ.

عندما عاد إلى اللوح والتقط الفأس التي كان يعمل بها، قال بمرارة:
- من بين كل الأمور التي ستحدث لنا، لماذا علينا أن نواجه الطبيبة؟
- رد «تيتشر» بهدوء: يمكنني أن أفكر بأسوأ من ذلك. بالإضافة إلى أنها قد تكون عوناً لنا.
- عوناً لنا، يا إلهي! لا أريد أن يكون لنا علاقة بها. إنني أكرهها.
- أنت لا تكرهها حقاً. أنت فقط تكره الأفكار التي تمثلها.
- ربما الأمر كذلك، لكن هذا يجعلني أكن لها الكره. إنني أكره كل ما يمت لـ«النظام الجديد» بأي صلة، ألا يخالجك الشعور نفسه؟
- لا، لا أشعر بشعور كهذا.
- أوقع كونان الفأس من يده وقال: لكنك كنتَ سجيناً لديهم مدة أربع سنوات! عليك أن تكرههم!
- لا يمكنني أن أكرههم يا بني. إنني أكن الإعجاب لمعظم الأشخاص هناك.
- كيف يمكنك ذلك؟ لقد وسموك، وضربوك، وجعلوا كثيراً من الناس عبيداً لهم، وقتلوا أعداداً كبيرة أخرى. إنهم مشوهون ومعتوهون وقلوبهم لا تعرف الرحمة بالتأكيد.
- قاطعة «تيتشر»: صحيح يا كونان. ما تقوله صحيح. لكنك نسيتَ أنهم كانوا يخوضون معركة قاسية من أجل الصمود، ولم يكن بحوزتهم سوى القليل من الآلات للتعامل مع الوضع. كانت «إندستريا» في حالة من الشلل التام، وما تزال كذلك بنسبة كبيرة. وقد كلفهم ذلك اتخاذ تدابير صارمة من أجل البقاء على قيد الحياة، واستمرار عمل الآليات. وفي ظروف كهذه يكون أقسى التدابير، خاصة في بيئة تنعدم فيها الخيارات، البحث عمن يتولى السلطة. توقف «تيتشر» ثم تابع كلامه. لا تحكم على الجميع بسبب ما تفعله القلة. هنالك أناس طيبون في «إندستريا» ويستحقون الثناء على ما يفعلون. هؤلاء هم الذين لا يمكن للعالم أن يخسرهم، لذلك ينبغي أن أعود إليهم وأحذرهم. أما الآخرون...

- ماذا بشأن الآخرين؟

- إن أكثر الممنوعات فتكاً بالعالم هي السلطة. وهي ستنفلت من سيطرة المفوضين الذين يتولون زمام الأمور، ما لم يتوسعوا بسلطانهم، ويحصلوا على المزيد من القوة. والاستيلاء على «هاي هاربور» سيساعدهم في ذلك. وسيكون ذلك عوناً لهم أيضاً في استعادة قوى كانوا قد خسروها بسبب التغيير. هل فهمتني الآن؟

- أعتقد ذلك يا سيدي.

- نظر الرجل العجوز إلى الكوخ الصغير وقال: بالنسبة إليها، دعها تظن أنني «باتش». سيكون ذلك أكثر سهولة. إنها مكرّسة لخدمة «النظام الجديد»، وهذا كل ما تبقى لها. لن يكون بمقدورك أن تغير طريقة تفكيرها. دعها تركن إلى استنتاجاتها من دون مساعدة منا. في الوقت الحالي، ستكون عوناً كبيراً لنا.

- عون؟ كيف؟

- بأن تخيطَ الشراع. وأن تصطادَ السمك الذي سنأخذه معنا، ثم تعملُ على تدخينه. ستكون عوناً لنا بأن تقوم بأعمال كثيرة توفر علينا الوقت. إذ يقع على عاتقنا كلينا أن نفعل المستحيل. علينا أن نبني المركب، وأن نبحر من هنا في أقل من أسبوع واحد.

- ابتلع كونان ريقه وقال: أسبوع واحد؟ لكنك تعرف أنه لا يمكننا ذلك.

- بلى يمكننا. وعلينا أن ننجز ذلك. أو سيتحتم علينا أن نتوه في الضباب ولا نرى «هاي هاربور» مجدداً. ابدأ العمل الآن. بحوزتنا أدوات جيدة نعمل بها. ستندهش من السرعة التي يمكننا فيها أن ننجز اللوح ونحوله إلى قارب إبحار.

11- التائهون

عملا مثل جنيين منذ طلوع أشعة الصباح الباكرة وحتى حلول الظلام. وفي غضون يومين كان اللوح قد جُوّف وشُكّل على هيئة قارب، وقبل مجيء مساء اليوم الذي تلا ذلك أنجزا الشراع ومسند التجديف أيضاً. وبعد أن أخبرا الطبيبة «مانسكي» عن مجريات الأمور، باشرت عملها بوجه متجهم، واكتفت بالتحدث إليهما وقت الضرورة فقط. لكن كونان الذي لاحظ نظراتها التي كانت ترمق بها «تيتشر»، كان يدرك حجم الأسئلة التي تؤرق فكرها.

- فجأة في مساء اليوم الرابع، تحدثت إلى «تيتشر» بقسوة: ما هذه الحكاية الغريبة التي رويتَها للمفوضين يا «باتش»؟ حاول ألا تتهرب من الإجابة هذه المرة أيضاً. أريد أن أعرف الحقيقة الآن.

- أجاب «تيتشر» من دون أن ينظر إليها مباشرة، أو أن يتوقف عن العمل: لقد أخبرتهم عن الشق الذي يخترق «إندستريا».

كان يساعد كونان في لصق عمودين لصنع صارية الشراع الذي كانت تخيطه الطبيبة «مانسكي».

- ثم قالت الطبيبة: حسناً؟ أخبرني عن الشق.

- شرحتُ لهم ما سيحدث عندما ينشطر الشق، وحَدّثْتُهم أن يحذروا الجميع وأن يسارعوا في نقل معدات الطعام على الفور. أتمنى أن يكونوا قد فعلوا ذلك. إن نصف المدينة على حافة الانزلاق إلى أعماق البحر.

- ما هذا الهراء المطلق؟ لا تقل لي إنهم صدقوا ما تقول.

– ينبغي عليهم أن يصدقوني. وإلا لما بدؤوا البحث عندما هربت أنا وكونان من هناك.

– ملأت عينا الطبيبة الحالكتا السواد نظرة تملؤها الحيرة وقالت: لا أفهم هذا. لا أفهم ما تقوله إطلاقاً. لماذا عليهم أن يصدقوا رواية كهذه؟ وأن تكون أنت، من بين كل الناس، صاحب الرواية؟ ينبغي أن يكون هناك سبب لهذا. ما الأمر يا «باتش»؟

– رد «تيتشر» ببرود؟ لقد أخبرتهم أنني «برياك روا».

– حَدَّقَتْ به. وانفَجَرَتْ غاضبة على حين غرة: أي نوع من الأغبياء هؤلاء الذين يتولون إدارة «النظام الجديد»؟

– رد «تيتشر» بنبرة هادئة: إنهم حمقى عميان. لقد أضاعوا سنوات طويلة يبحثون عن رجل لم يكن سيفعل ما أرادوا لو أنهم عثروا عليه. كانوا يفكرون فيه على أنه إله علمي يمكن أن يجبروه على فعل أي شيء وحَلّ ما يعترضهم من مشكلات. لو أنهم كانوا يؤمنون بالله الحقيقي، لكانوا مضوا قُدماً مُعتَمدين على أنفسهم، وكانوا في حال أفضل اليوم.

– ألقت الطبيبة «مانسكي» الشراع جانباً ووقفت على قدميها. هذا يكفي! أحدكما يسمع أصواتاً، والآخر يحكي كلاماً أخرق عن الله. ما هذا الغباء؟! إن كنتما تتوقعان مني أن أساعدكما...

– قاطعها كونان ببرود قائلاً: لولا أن صوتاً لم يكن يرشدني لما كنتُ حياً أرزق اليوم، ولما كنتِ أنتِ أيتها الطبيبة «مانسكي» على قيد الحياة أيضاً، لأنني لما كنتُ أتيتُ إليك وسحبتكِ من الماء.

– سبق أن عبرّتُ لكَ عن امتناني، لكن هذا لا ينفي حقيقة أنك معتوه.

– حدثها «تيتشر» مبتسماً: إذن عليكِ أن تصبري على معتوهَين، لأنني أنا أيضاً سمعت صوتاً يرشدني.

– نظر إليه كونان نظرة استغراب سريعة، فهز الرجل العجوز برأسه وتابع قوله: لقد تجاهلْتُه في المرة الأولى ولذلك خسرتُ عيني هذه. ومنذ ذلك الحين، تعلمتُ أن أصغي إليه.

- كشفت الطبيبة «مانسكي» عن تكشيرة في وجهها. وعلى ما أعتقد فإن الله الذي لا يُرى هو الذي يُحَدّثكَ ويقدم لك النصح؟

رفع «تيتشر» حاجبيه الأبيضين؟ لماذا عليّ أن أحصل على مزايا إضافية؟ يبدو أنكِ نسيتِ أن الأمور كُشِفَت وأن الحكمة متاحة لنا؟

- كشَّرت الطبيبة مرة أخرى: كيف يمكن ذلك؟ بالإصغاء فقط؟

- لم لا؟ كل واحد منا لديه أذن داخلية يسمع بها. إن لم نكن نسمع بها، فذلك لأننا جعلناها تصبح صماء.

- وَقَفَتْ للحظة تنقّل نظراتها بين الواحد والآخر، بدأ وجهها الهزيل يتصلب. ثم انفجرت غاضبة: ما هذا الهراء؟! لقد سمعت ما يكفيني اليوم. وأفضّل بدلاً من الاستماع إلى المزيد من هذا الهراء أن أبقى هنا عندما تغادران المكان. سأتدبر أمري في البقاء على قيد الحياة.

- رد «تيتشر» مستهجناً: افعلي ما يحلو لكِ. لكن إن بقيتِ، أشك أنك ستنجين في الوقت المناسب.

- من أجل أي شيء سيكون الوقت مناسباً؟

- أنت امرأة متعلمة. ألم تتلقي معلومات أولية في علم الجيولوجيا لتعرفي ما سيحدث هنا عندما تهتز القشرة الأرضية تحت «إندستريا» فجأة؟

- عندما سمعت الطبيبة هذا الكلام، اتسعت عيناها السوداوان: ستحدث موجة من الصدمة؟

- أجل، تسونامي. سيتدفق إلى هذه الجزيرة ويكتسحها بالكامل.

- فتحت الطبيبة فاها ثم أغلقته ببطء. فجأة اندفعت عيناها إلى القارب الذي يصنعانه. ما الذي سيحدث لهذا المركب المهلهل عندما يضربه التسونامي؟

- لا شيء. إن لم تتشقق القشرة الأرضية، فإنه سيبحر فوق الموجة كما تطفو الفلينة.

- نظر إليه كونان باندهاش. فهو لم يكن يعرف هذه المعلومة. ثم

أضاف «تيتشر»: إن الخطر الكبير يحدق بـ«هاي هاربور». من المحتم أن يضربه التسونامي. لكن «هاي هاربور» يقع على زاوية البحر، وأنا أتضرعُ إلى الله أن تمر الموجة عبر الميناء نفسه وتكمل الطريق. بالتأكيد سيعلم القاطنون هناك بالأمر قبل ساعات.

- لكن كيف؟ من سيعرف بذلك؟

- من المحتمل «دايس»، في حال كان لا يزال لديه اتصال لاسلكي. كما أن أي شخص يجيد التواصل سيعرف بتصدع الشق تحت المدينة. لا يمكنني إلا أن أشعر بالخوف في عقول الكثيرين.

- حدقت به الطبيبة مانسكي وقالت ببطء: أنت لا تشبه على الإطلاق ذلك الرجل الذي كان في المرفأ يا «باتش». لقد تغيرتَ كلياً. من أنت؟

- أعتقد أنه من الأفضل أن نوفر أي نقاشات إضافية إلى أن نركب البحر. ببساطة نحن لا نملك الوقت لذلك. وإن كنا نقدّر حيواتنا، علينا أن نشد الرحال في غضون أربعة أيام على الأكثر.

بدا أنه من المستحيل أن ينجزوا كل الأعمال في وقت قصير كهذا. لكنهم نجحوا بطريقة ما. في مساء اليوم الأخير، كان المركب مع الشراع ومسند التجديف قد اكتمل صنعه وحُمّل بالأغراض. زَيَنَتْ شرائط من البلاستيك الإسمنتي القارب المجوف كي لا تغمره المياه. على المنصة بين المركب ومسند التجديف، ثُبِتَت عوامة الطبيبة، ورُبِطَت حولها قطع المعدات وزجاجات الماء التي خزنها كونان مسبقاً. في فتحة في المركب خُزّنَت كميات إضافية من الماء في الزجاجات التي جمعها كونان ومعظم الأسماك المدخنة مع أكوام من رقاقات اللوح الخشبية.

عندما انتهوا من تحميل الأغراض كان الظلام قد حلّ تقريباً. لكن أحداً منهم لم يقترح أن ينتظروا حتى الفجر. كان الطقس والبحر في مصلحتهم، وكانت نسمات من الرياح العذبة تهب عليهم.

ودّع كونان طيوره. دفع المركب بعيداً عن الشاطئ ورفع الشراع. عندما أصبحوا على طريق الرحيل، محاطين بالنوارس التي تحلق حولهم بشكل دائري، نظر كونان إلى الخلف ورأى الجزيرة تتلاشى في ظلال الغسق. كظم غيظه لعلمه أنه يراها للمرة الأخيرة.

نظر إلى حجاب الضباب المحيط بالظلام الذي ينتظرهم. ملأه المشهد برهبة مفاجئة. كيف كانوا سيبحرون في هذا البحر المجهول من دون بوصلة ترشدهم في الطريق؟

***

في الوقت الذي كان في المركب يبدأ رحلته الغامضة، كانت لانا عائدة ببؤس إلى الكوخ برفقة «تيكي» فوق كتفها. لولا مواساة «تيكي» لها لبلغت كآبتها حداً لا يطاق. كل الأخبار التي سمعتها على مدى أسابيع كانت سيئة. لكن من كان يظن أن الفتيان -خاصة أولئك الذين اعتَمَدَتْ عليهم لدعم «شان»- كانوا سيفعلون ما فعلوه هذا الصباح؟

تَوَقَفَتْ لانا، ثم وَضَعَتْ سلة التوت التي أمضت في قطفها فترة بعد الظهر، وحَدقتْ بأسفل المنحدر الطويل حيث يرتفع المرفأ. تمكنتْ من خلال الأشجار أن ترى سفينة المقايضة فقط، كانت تبدو من بعيد كأنها لُعبة. شَعَرَتْ وهي في غمرة المشهد المفاجئ باستياء لأنها لم تتمكن من رؤية الأعمال المنجزة على الرصيف الجديد القريب من السفينة. فكرت في أعماقها، لماذا لا تذهب السفينة القبيحة وتتركنا وشأننا؟ ما الذي جَلَبَتْه لنا سوى كومة من المتاعب؟

سرح عقلها في الاجتماع المرتجل الذي دعا إليه «شان» هذا الصباح. وبما أن «النظام الجديد» بات يعرف بأمر «تيتشر»، بدا أن الوقت مناسب لإخبار الجيل اليافع بحقيقة ما جرى. كان ينبغي أن تقضي الحقيقة على المفوض «دايس» والجميع، لكن لسبب ما لم يحدث ذلك.

حدث شيء من السخط طبعاً. وبعض النقاشات السخيفة. أحد الفتية قال: إنني لا أفهم ما تقوله. عوضاً عما فعله «تيتشر»، لماذا لم يخبر

«النظام الجديد» بحقيقة أمره ويتعاون معهم؟ أَمَا سيكون حال الجميع أفضل مما عليه؟

وهكذا اشتعل الجدال، واستمر الأخذ والرد بعضاً من الوقت، وبينما أيّد قلة موقف «تيتشر»، عارضه كثيرون. والحقيقة الصادمة أن أحداً لم يكن يهتم بالفعل لأمر «تيتشر». فبعد مرور كل هذه السنوات، نسيه جيل اليافعين، بينما انشغل البالغون بشؤونهم الخاصة فقط. كان معظم الفتيان والفتيات في حالة من الغرام والمواعدة. وعلى الرغم من أن الآراء ليست في مصلحة المفوض، فإن الجميع لم يمانع المقايضة معه، خاصة عندما يتعلق الأمر بحاجيات مثل الدراجات، وصناديق الموسيقى، والبودرة المعطرة، والمرايا.

للحظة هامت أفكار لانا، وشَعَرَتْ بوخزة حادة من الحسد عندما تَذَكَرَتْ سلوك الصبيان مع صديقاتهم البنات. لو قُدّر لكونان أن يعود هل كان سينظر إليها تلك النظرة المميزة؟ أم أنها يا ترى قد أصبحت فتاة شاحبة عديمة اللون لن يبدي نحوها أي اهتمام؟

ثم نَسيَتْ ذلك الاحتمال المزعج عندما عادت أفكارها إلى الاجتماع الذي باء بالفشل.

- سأل أحد الأولاد وكان قائد المجموعة: عندما يأتي «تيتشر» من سيتولى زمام الأمور هنا؟

- أخبره «شان»: هو بالتأكيد. لولا تيتشر لما كان واحد منا هنا اليوم.

- ثم خيم الصمت لحظات، وتعالت همسات كثيرة ثم قالت واحدة من الفتيات: نحن نكُنّ الاحترام لـ«تيتشر» لكن من المؤكد أنه تقدم في السن كثيراً. وقد حان الوقت لننتخب قادتنا. ألا تعتقد أنه ينبغي أن ندير «هاي هاربور» بأنفسنا؟ ما رأي الجميع؟

- وافقت البنات والصبيان على الاقتراح لكن ساد نوع من القلق بشأن «أورلو»: ما هي منافع أن نختار قائدنا؟

- نحن نعرف أن «أورلو» مستعد لاستلام السلطة بكل الأحوال.

- ماذا لو أنه فعل ذلك؟ إنه متحالف مع المفوض، وسيحضر لنا كل ما نريد.

- صرخ أحدهم: لا نريد «أورلو». ينبغي أن نتعاضد معاً ونختار قائدنا.

- لم لا ننتظر وصول «تيتشر» إلى هنا؟

- لننس أمر «تيتشر». قد لا يتمكن من المجيء إلى هنا أبداً. بكل الأحوال سيُعقَد اجتماع آخر في وقت قريب. ألم يسمع الجميع بهذا؟

- أي اجتماع؟

ثمة إشاعة تقول إنه سيكون اجتماع كبير. لكن قلة عرفت بالأمر، ولم يكن أحد على علم بأي تفاصيل. من الواضح أن شيئاً ما يُدبر بصمت.

نَظَرَتْ لانا إلى الميناء بحزن مجدداً، ولاحظت للمرة الأولى الأعمال التي تجري على الرصيف. ظلت تحدق. كان من الصعب عليها أن ترى بوضوح في المسافة الضبابية، لكن بدا أن مجموعة من الصبية والبنات قد اصطفوا في انتظار دورهم ليُنقَلوا إلى سفينة المقايضة.

ما الذي يجري على سطح السفينة؟

أكان هذا الاجتماع الذي سَمِعَتْ بأمره؟ قَرَرَتْ أنه من المستحيل ذلك. لم يكن هناك كثير من المصطفين والمصطفات. لكن لابد أن للأمر علاقة بالاجتماع، وبـ«أورلو» أيضاً. أكان المفوض يُسلي بعضاً من قادة المجموعات على أمل أن يرشيهم للتصويت لمصلحة «أورلو»؟

تحول الاستياء المتصاعد في أعماقها إلى غضب. ليس غضباً من «دايس» فقط الذي كان يحيك أمراً من دون علم «شان»، بل من كل هؤلاء الذين قبلوا الدعوة بالذهاب إلى سطح السفينة. ساورها شعور باليقين أن بعضاً منهم كانوا من بين الذين التقى بهم «شان» في الصباح. ألا يملكون ذرة من الإحساس بالولاء أو حتى الفخر؟

اسودت عيناها وتَصَلَبَتْ يداها الهزيلتان. ثم قاومتْ غضبها عندما أَدْرَكَتْ أن عليها أن تعرفَ ما يدور. إن كان للأمر علاقة بالاجتماع

السري، من المؤكد أن مستقبل «هاي هاربور» يعتمد على ذلك. لكن كيف يمكن لها أن تعرف ما يجري من دون أن تذهب إلى سطح السفينة؟

على الفور أمسكت شفتها بأسنانها. ثمة طريقة إن استطاعت تدبرها.

- همست لانا: «تيكي»، «تيكي»، أريد منك أن تطير إلى هناك وتحلق فوق السفينة. ولا تخف إن أتيتُ إليك وأصبحتُ بطريقة ما جزءاً منك. هيا يا «تيكي»، حلق.

عندما طار الخرشنة من فوق كتفها، أغلقت لانا عينيها وحاولت أن تغوص في عالمه بعمق كما فعلت مرتين في حياتها.

في المرة الأولى، كان عمرها ثلاث سنوات فقط، وحدث ذلك بسهولة كبيرة لدرجة أنها بالكاد أدركت ما حدث. كان هنالك حيوان صغير عند حافة المرج بالقرب من المقصورة الصيفية حيث ذهب أهلها في تلك السنة، قبل أن تشتد رحى الحرب. كان هذا أول مخلوق فَروي بري تراه على الإطلاق. لم تكن تعرف ما نوعه -سنجاب أرضي ربما، أو أرنب صغير. لكن رؤيته بعثت في نفسها السعادة لدرجة أن قلبها غاص فيه على الفور. وفي رفة عين، وَجَدَتْ نفسها ترى العالم بعين ذلك الكائن. كانت تدرك في تلك اللحظة ملمس العشب تحت المخالب الصغيرة ورائحته المنبعثة من الخيشوم المرتعش. كانت هنالك روائح أخرى، وكثير من الأصوات -أصوات آمنة مثل هرولة سريعة ونقيق، وأصوات أخرى غير آمنة مثل دعسات مفاجئة لأقدام ثقيلة. كان هنالك خوف، أعقبه لحظات رعب خاطفة من جانب كل منهما. ثم وَجَدَتْ نفسها تعود إلى كينونتها، وتنظر إلى العالم بعينيها.

المرة الثانية حَدَثَتْ بعد عام من ذلك، عندما استحوذَ على اهتمامها عصفور كان يطير فوق رأسها. جال في خاطرها كم سيكون أمراً رائعاً، أن تطفو على أجنحة من الريش فوق كل شيء. لكن التجربة الفعلية أن تجد نفسها على هذا القَدْر من الارتفاع، وهي بعمر الرابعة، من دون أي

شيء تحتها حرفياً سوى الأرض البعيدة، كانت مخيفة للغاية بالنسبة إليها لدرجة جعلتها حريصة ألا تكررها مرة أخرى.

لكن ينبغي عليها أن تفعلها الآن.

كثفت لانا تركيزها. ستبعث فيه إرادتها، لكنها ظلت عالقة على الشجرة التي حطت فوقها، بينما ابتعد «تيكي» عنها.

في الوقت الحاضر، أدركت أن القدرة هجرتها بسبب خوفها البعيد من تكرار التجربة. وبعد كل الشكوك التي راودتها في الأسابيع الماضية، وكل ما جرى، كان فشلها فوق قدرتها على التحمل. لمست وجهها بيديها وبدأت تتنهد.

***

لو لا العقدة اليومية التي ربطها كونان بالحبل الموصول بالشراع الذي يسميه «تيتشر» بالغطاء لأضاع أثر الوقت. كان ذلك مساء اليوم العاشر منذ أن تركوا الجزيرة. وبدا أنهم يبحرون في الفراغ.

بداية، لم يكن من الصعب الحفاظ على الوجهة الغربية. فهم دائماً كان بإمكانهم، وعبر الضباب، تبين وهج الشمس نهاراً والقمر ليلاً.

ثم حل سواد القمر، وازداد الأمر صعوبة. لكن يمكن لهم تدبر الأمر إن فهموا حيلة ذلك، شريطة ألا يتغير مزاج البحر والرياح بين الشفق والفجر. ليس عليهم إلا أن يتبعوا ملمس الريح على الأذن، وأن يتمنوا ألا يصطدم المركب بجسم لا يرونه. خلال الأيام الثلاثة الماضية، كان الحجاب الضبابي يزداد سماكة. لم يكن هنالك أفق. وتلاشى وهج الشمس الغامض تدريجياً. كانت قد مضت ساعات منذ أن استشعر كونان بمسار الوجهة. كان متأكداً أن الريح غيرت مسارها منذ الصباح، وجل ما كان يعرفه أنه ربما كانوا يتجهون عائدين من حيث أتوا.

- نظر إلى «تيتشر»، ثم تمتم الرجل العجوز: أبحر بثبات مع اتجاه الريح يا بني.

- تعتقد أننا ما زلنا نسلك اتجاه الغرب؟

- بالتأكيد نسير غرباً أكثر منه شرقاً. لكن في الغد...

- لكنني لا أفهم ما كل هذا الضباب. هل الضباب الهائل حل باكراً؟

- على الأرجح. كما أن ثمة تيارات لا نعرف بشأنها. لدي إحساس أننا دُفِعنا شمالاً نحو منطقة الضباب. إنها منطقة الغطاء الجليدي القديم.

- أوه. تجرع كونان ما قيل له، وفجأة بدأ يشعر باليأس. فكر بالسمك المدخن الذي أكلوا منه نصف الكمية وبزجاجات الماء التي كانت تتناقص. ثم سأل تيتشر. برأيك ما هو أفضل حل يمكن أن نفعله؟

- أجاب العجوز بهدوء: صلِّ وحسب.

تذمرت الطبيبة «مانسكي». لم تقل إلا كلمات قليلة طيلة الوقت، وكانت تتجنب النقاشات لوقت طويل. كانت قد باشرت ورديتها الاعتيادية خلف المقود وأثبتت أنها بحّارة جيدة. لم يسبق لها أن اشتكت أو أظهرت الخوف، حتى في غمار عاصفة قصيرة كانت قد هددت بتحطيم المركب إلى أجزاء صغيرة.

- لكنها قالت بازدراء ونبرة قاسية: نصلي من أجل ماذا؟ من أجل تلك الأصوات التي تسمعها؟

- نظر إليها «تيتشر» مبتسماً: هل تتضرعين إلى الهاتف يا دكتورة؟

- ماذا؟ هاتف؟ لماذا ترد عليّ بهذا الهراء؟

- ليس هراءً. الهاتف هو اتصال بين شخصين. والصوت الذي يسديني النصح أحياناً هو اتصال أيضاً. ربما يكون روح وصي، أو ربما أنه روح. من يعرف؟ لكنه اتصال بكل الأحوال.

- بينك وبين من؟

- بيني وبين المعرفة التي يسميها بعض الناس الله.

- تذمرت الطبيبة مرة أخرى. ها قد عدنا إلى رواية الله. ومنذ قليل كنت تتحدث عن النفوس والأرواح. أتعتقد حقاً أيها العجوز أن لديك روحاً؟

- بالتأكيد. إنه الجزء الأهم والدائم مني.

- ضحكت الطبيبة من قلبها. فجأة صوبت إصبعاً نحوه وقالت بقسوة: اسمعني. أنا لست طبيبة فقط، واحترافية في عملي. في غرفة العمليات، دخلت إلى أجزاء الجسم كلها -ليس مرة واحدة فقط، بل مرات لا تحصى- وما من مرة وجدتُ فيها ما يشبه الروح، أو موقعاً صغيراً يمكن لها أن تختبئ فيه.

ضحك تيتشر وقال: ولن تعثري على شيء كهذا على الإطلاق.

- لماذا تضحك عليّ؟

- لأنك كنتِ تبحثين في اتجاه واحد عن شيء يكمن في اتجاه آخر.

- لا وجود للروح على الإطلاق. أتحداك أن تثبت العكس.

- مَدّ تيتشر يديه. لماذا تعيشين يا دكتورة؟

- أنا لم أطلب أن أولد في هذه الحياة، لكنني هنا، وها أنا أحاول أن أستغل ذلك أفضل استغلال. لكنني أعلم أنني إلى حد ما سمكة فانية لها دماغ. بكل الأحوال، أنا لستُ على درجة من الأهمية. ليس هنالك ما هو أكثر أهمية من «النظام الجديد».

- رد تيتشر بإصرار: لكنك ذات أهمية. ألا تدركين أن ثمة غاية من وجودك؟

- سَمّ لي غاية؟

- أنتِ هنا لتساعدي الآخرين، ولتكسبي المعرفة.

- نظرت الطبيبة إلى كونان: أتصدق كل هذا الهراء؟

- أجل.

- من المؤكد أنه خدعك ببعض الأكاذيب. ألهذا تناديه «تيتشر- المُعلم»؟

- رد كونان ببطء: أناديه كذلك لأن هذا هو الاسم الذي طالما عُرِف به.

– ومنذ متى تعرفه؟

– طيلة حياتي.

– طيلة حياتك! حدقتْ به ثم نطقتها أخيراً: وهل هو الرجل الذي كان يُعرَف أمام العالم باسم «برياك روا»؟

– أجل.

– قد أميل إلى تصديق ذلك، لكن يمنعني من ذلك أمران: «باتش» لا يشبه الصور التي رأيتها، و«برياك روا» العظيم كان أذكى بكثير من أن يصدق الكلام السخيف عن الله.

في تلك اللحظة، لم يهتم كونان بما كانت تَظُنه. كان الظلام قد حل تقريباً. والريح قد همدت. والشراع قد استرخى. لو أنه أحس بأدنى شعور بالاتجاه الذي يسلكه، فلابد أنه أفلت منه في الدقائق العشر الماضية. الحقيقة الصارخة كانت أمراً كَرِهَ مواجهته. كانوا تائِهين، وينجرفون في الفراغ. وإن ضلوا إلى منطقة الضباب الكثيف، فيمكنهم أن يستمروا في الانجراف نحوها إلى الأبد.

– بدا أن الطبيبة «مانسكي» أدركت المأزق في الوقت نفسه تقريباً: إننا تائهون، أليس كذلك؟

– رد تيتشر: إننا تائهون الآن.

– هذا ما ظننتُه. لقد مررتُ سابقاً بتخوم هذه المنطقة عندما كنت على متن سفينة المسح. واستطعنا بفضل البوصلة الجيرسكوبية الوحيدة في الوجود أن نخرج منها. لكن لا أمل لدينا بالخروج منها الآن.

– هنالك أمل يا دكتورة. الأمل موجود دائماً.

– ماذا؟ لماذا لا تواجه الحقائق؟ أم أنك تهاب الموت؟

– لستُ خائفاً على نفسي يا دكتورة.

– ولا أنا كذلك. دعونا نُسَلّم بالحقيقة إذن. حياتنا ستنتهي في هذا المركب البدائي. سنموت واحداً تلو الآخر.

– أشك في ذلك. يساورني شعور أننا سنعيش لنرى «هاي هاربور».

- ضحكت الطبيبة ببرود: أنت تؤمن بالمعجزات، أليس كذلك؟

- بالطبع!

- ثم ضَحِكَتْ مجدداً. إن حدثت المعجزة، سآكل الغراب، كما يقولون. حينها سأعترف بفكرة إلهك السخيف.

- ليس عليكِ ذلك. ليس عليكِ أن تتظاهري بما لا تكنينه إطلاقاً.

- لن أكون مضطرة لفعل ذلك. سنظل ننجرف مع التيار إلى أن نموت نحن الثلاثة.



12- المرشد

منذ أن كان التغيير لم تصعد لانا الدرجات المتعرجة وصولاً إلى الطابق العلوي من البرج. حدث ذلك عندما صَعَدَتْ بـ«تيكي» إلى الأعلى وطَلَبَتْ منه أن يعثر على كونان. ربما كان من الممكن أن ينجح «تيكي» بسهولة من دون أن يتخذ البرج نقطة انطلاق له. لكن لانا لم تفكر بهذه الطريقة. البرج يعود إلى زمن غابر، وكان مَعْلَماً قبل أن يزحف البحر على هذه المقربة بفترة طويلة. كان ثمة صفات غامضة فيه، وكان من الطبيعي فحسب أن يُعتبر نقطة انطلاق. ألم يكن البرج الموقع الوحيد حيث يمكن لـ «مزال» أن تتواصل مع «تيتشر»؟

كان الوقت ما يزال أول المساء عندما صَعَدَتِ الدرجات المهشمة وهي تحضنُ «تيكي» بيد واحدة. عندما وَصَلَتْ إلى فسحة صغيرة مفتوحة تحت سقف من القش، تَوَقَفَتْ فجأة، وأَمْسَكَتْ بالجزء العلوي من الجدار المائل لتقاوم خوفها من خطر الفسحة الممتدة أمامها. في نهاية المطاف، أَجْبَرَتْ نفسها أن تكمل الصعود وأن تقف حيث كانت تقف «مزال» كل مساء.

هَمَسَتْ وهي تَمْسِكُ بالطائر فوق جدار الحماية. عليك يا «تيكي» أن تعثر على كونان مجدداً. لكن هذه المرة سترشده إلى الطريق، مفهوم؟ كونان في مكان ما وسط الضباب، وقد ضلَّ الطريق. حلق يا «تيكي»، واعثر عليه، وأرشده إلى هنا.

فَرَدَ الخرشنة جناحيه الهزيلين بالرؤوس المدببة، وارتفع فوق يدها،

وبدأ بالدوران عالياً. عندما مَرَّ أمام ناظرها فوق سقف القش، أَغْمَضَتْ لانا عينيها وتضرعت إلى الله، ثم استَدَارتْ لتعود أدراجها. كادت تصطدم بـ«مزال» التي كانت تصعد الدرجات.

- سألتها «مزال»: هل أرسلتِ «تيكي»؟

- إنه في الطريق إليهما.

- أتظنين أن بإمكانه أن يعثر عليهما؟

- بالتأكيد يمكنه ذلك. لقد وجد كونان في السابق، صحيح؟

- هزت «مزال» رأسها. لكن لا أفهم كيف يمكنه ذلك. لا أفهم كيف يمكنه أن...

- لو أنني كنتُ «تيكي» أو أي طائر آخر لتمكنتُ من فعل ذلك بالتأكيد. السر كله بمقدرتك... استدارت لانا فجأة وبدأت تلهث. لا يمكنني الوقوف هنا. دعينا ننزل. ثم نزلت عن الدرجات.

لحقت الخالة بها. وفي الحديقة قالت لها «مزال»:

- أحياناً أظن أنني أعرفك، ثم أدرك أنني لا أعرفك. ما من شيء كان سيجعلني أذهب إلى مخيم «أورلو» وأن أفعل ما فعلتِه أنتِ. ومع ذلك تخافين من مشهد البحر المفتوح.

- إنه مشهد مرعب. ألا تشعرين بخطورته؟

- لا، أنا لا أقصد تجاهل تحذيرات «تيتشر» بشأن موجات الصدمة. لكن يبدو أنه لا يدرك أننا منذ التغيير مُجَرَدون من كل شيء. الموجات تنذر بالخطر طبعاً، وأعتقد أن موجة واحدة بقوة كبيرة يمكن لها أن تلحق أضراراً بالغة بالميناء. لكنني عندما أذهب للصيد دائماً ما أبقي نظري نحو الأفق، أو أنني أراقب كيف ينحسر المد في الأجواء الضبابية. إنه ينحسر فجأة. لقد شهدتُ ذلك مرتين، وكان لدي متسع من الوقت لأصعد إلى ارتفاع آمن.

- تَوَقَفَتْ «مزال» عن الكلام قليلاً ثم تابعت: لكن فيما يتعلق بـ«تيكي»، فإنني أشعر بقلق بالغ. أتظنين أن الضباب سيزيد من صعوبة المهمة؟

- عندما يكون بمقدورك أن تشعري نوعاً ما بمكان وجودهما، ينبغي ألا يُحدِث الضباب أي فرق، أليس كذلك يا «مزال»؟ كنتُ قد أخبرتكِ أن الوجهة الصحيحة كالنور في الظلام. الأمر الذي...

- ما الأمر؟ ما الذي يقلقك يا لانا؟

- لا شيء، كنت أتمنى لو أننا علمنا سابقاً بالمأزق الذي يواجهانه. لكنني متأكدة أن الأمور ستسير على خير ما يرام الآن.

لم تكن متأكدة من يقينها على الإطلاق. حقيقة الأمر أنها كانت تشعر في أعماقها بخوف مريع أنها أرسلت «تيكي» إليهما بعد فوات الأوان. كان حجاب الضباب يتسلل على طول الساحل، وهذا مؤشر أكيد على أن الضباب الساحق لم يكن بعيداً جداً. حالما ينتشر الضباب سيكون كثيف الطبقات في بعض الأوقات حتى أن الطيور ترفض أن تترك العلياء. ربما يتطلب إرشاد كونان و«تيتشر» أكثر من مساعدة «تيكي».

***

لم يعد هناك شك في حدس كونان أن الضباب الساحق قد تسلل قبل أوانه، وأنهم قد علقوا في أسوأ توقيت له. هذا الصباح- في حال تمكن أحدهم أن يسمي الرماد الخانق صباحاً- فإنه بالكاد يستطيع رؤية «تيتشر»، متدثراً بكيس وبطانية، على بعد بضع أقدام منه. الطبيبة «مانسكي» كانت مجرد صوت منفصل عن الجسد عند النهاية الأمامية من عوامة النجاة.

بدا من المستحيل أن مركبهم كان يبحر فعلياً. لكن الشراع كان يلوح وكانوا يبحرون في البحر بسرعة. وهي حقيقة لطالما فاجأته كلما انحنى إلى حافة القارب وتفحص الماء بأطراف أصابعه. لكن أي اتجاه كانوا يسلكون يا ترى؟

- حدث كونان «تيتشر» مستفسراً عن الأمر: ألن يكون من الأفضل أن نجرب ولو مرة واحدة أن نسير في مسار آخر؟

– أشك في ذلك. حافظ على الإبحار في اتجاه الرياح. هكذا سنكون أقل عرضة للإبحار بشكل دائري.

– تدخلت الطبيبة «مانسكي». اتجاه دائري؟ وما الفرق في ذلك؟ إننا بكل الأحوال نسير كالأشباح في مكان مسكون إلى اللانهاية.

– ضحك «تيتشر» ضحكة خافتة: الدكتورة العزيزة، لم أكن أعرف أن منهجك الفلسفي يعترف بأشياء خالدة على غرار الأشباح.

– ردت الطبيبة: مجرد تشبيه مجازي لا أكثر.

– حسناً، لنفترض أننا وجدنا طريق العودة وسط هذا الضباب. لنفترض...

– من سيدلنا على طريق العودة. أحد الأصوات التي تسمعها؟

– كان لدي طائر يجول في ذهني. تمتم «تيتشر».

– قالت الطبيبة بغضب: طائر!

– الطيور تربطها علاقة ألفة مع الملائكة. لكنني كنت أتساءل، عندما نصل إلى «هاي هاربور»، كيف سيكون شعوركِ حيال «النظام الجديد»؟

– إنني خادمة «النظام الجديد». هذا كل ما يهم.

– لكن لنفترض أن «النظام الجديد» تلاشى؟

– لا تقل كلاماً سخيفاً.

– لكن كيف يمكن للنظام أن يستمر من دون أتباع؟ خلال سنوات إقامتي في «إندستريا»، لم أرَ أحداً من جيل اليافعين. عملياً أغلب قاطنيها هم من كبار السن الذين فقدوا عائلاتهم في الحرب. مثلكِ أنتِ على سبيل المثال.

بقيت الطبيبة صامتة.

– من دون أولاد، سيفنى «النظام الجديد». لقد كَرَّستِ نفسك لخدمة العدم.

– صاحت الطبيبة: أنت مخطئ. سيكون لدينا أتباع. المفوض «دايس» سيهتم بهذا الأمر. لديه تعليمات بذلك.

- وهل كان من ضمن التعليمات أن ينشر فيروساً يعرض حياة الجميع في «هاي هاربور» للخطر؟ لأن هذا ما فَعَلَه المفوض، وقد تسببَ بموت فتاة صغيرة ليثبت قدرة الفيروس على الفتك، وليتمكن بالمقابل من إتمام صفقة مقايضة ووقف انتشار الفيروس.

- أيها العجوز المعتوه، لماذا تخبرني كذبة كهذه؟

- إنها الحقيقة يا دكتورة. أنا أجيد التواصل، وكنتُ منذ التغيير على تواصل مستمر مع ابنتي. زوجها هو الطبيب الذي عينتُه مسؤولاً على شؤون «هاي هاربور». كانت وحدة الطاقة الجديدة التي طورتها الميزة التي لم أرغب أن تقع بين أيدي أشخاص مثل المفوض «دايس». إنها أكثر الإجراءات بساطة، والجميع في حاجة إليها لتنقذنا من المصير الشاق الذي نواجهه اليوم. لكن مفوضي «النظام الجديد» يريدونها لغاية أخرى. وهي بحوزتهم الآن، أو بحوزة «دايس» على الأقل. إنها الثمن الذي كان علينا أن ندفعه لذلك المخلوق قبل أن يوافق على إنقاذ أرواح الناس من الفيروس.

صدر صوت مخنوق من الطبيبة «مانسكي».

- أكمَلَ تيتشر كلامه: أبهذه الطريقة تكسبون أتباع «النظام الجديد» يا دكتورة؟ وعندما تعيدون بناء العالم، أتريدون نموذجاً على شاكلة البشاعة التي دمرناها؟ أم تظنين أن نموذجاً أبسط يساعد فيه الجار أخاه الجار سيكون أفضل بقليل؟

- بالكاد استطاع كونان أن يسمع صوت الطبيبة عندما نَطَقَتْ أخيراً وقالتْ: أنت «برياك روا»، أليس كذلك؟

- وما الفرق في ذلك يا دكتورة؟

- الفرق كبير. إن ذلك يحدث فرقاً كبيراً في العالم. ثم تنهدت فجأة وصاحت. طير! لقد طار للتو طير بمحاذاة وجهي.

- صرخ كونان. «تيكي»! أين أنت يا «تيكي»؟

- ظهر الخرشنة من بين طبقات الضباب ووقف على كتف كونان. ثم رفعه كونان بحنان بيد واحدة. تسرني رؤيتك مجدداً يا «تيكي». أتشعر بتعب يمنعك من أن تدلنا على الطريق؟ إننا تائهون يا «تيكي». في أي وجهة يقع «هاي هاربور»؟

ارتفع «تيكي» على مهل، وكاد يختفي في الضباب المُغَلِف.

في غمرة حيرته، تذكر كونان عادة الطيور في الارتفاع عالياً والتحليق الدائري قبل اختيار الوجهة. ناداه مجدداً، وحاول الطائر مراراً وتكراراً. لكن لم تنفع أي من محاولاته. كان الضباب يهزمه في كل مرة.

***

بدا أن لانا أدركت بعد أن سمعت تقرير «جيمسي» الأخير أن العالم يوشك على الاقتراب مجدداً من النهاية، ليس أنه قد بدأ بداية جديدة منذ التغيير. لكن كان ثمة فرصة لذلك. ولو أن «تيتشر» وكونان كانا حاضِرَين في الأشهر القليلة الماضية، لتغير مجرى الأمور كلها.

لم يهجرها إطلاقاً شعور الاشتياق إلى تلك الحياة التي ولّت. وعلى الرغم من كل الصعوبات، فإن هذه الحياة أفضل. أو أنها ستكون أفضل ألف مرة لو أن الأشخاص الجشعين يتركون الأمور على حالها.

توقفت لانا والحزن يغتسل قلبها. أمسكت بشجرة تسندها بعد أن استحوذت رسالة «جيمسي» على تفكيرها. كانت النتيجة حاسمة، أن مفوض المقايضة كان يوزع الهدايا على قادة المجموعات.

- قال «جيمسي»: لقد اتفقوا على التخلص من الطبيب. وأن يكون «أورلو» المسؤول عن «هاي هاربور». أتعرفين ما الذي يخطط له المفوض و«أورلو»؟

- ماذا يخططان يا «جيمسي»؟

- إنهما ينويان الاستيلاء على بيتك. وينبغي على الطبيب وزوجته أن يغادرا المكان. لكن «أورلو» يقول إنه سيبقيك هنا. هكذا كشف عن رغبته في الانتقام مما فعلتِه.

لولا قلقها المتزايد على كونان و«تيتشر»، لذهبت مسرعة إلى المنزل وخططت بغضب بارد للدفاع عن الكوخ. لكن في لحظة اليأس تلك، شعرت بالعجز والهزيمة. حتى أنها لم تسمع صوت «مزال» يناديها.

ثم سَمِعَتِ الصوت من بعيد. شيء ما في نبرته جعلها تسرع عائدة إلى الكوخ. التقتها خالتها أمام المكتب. قالت لها على عجل وملامح وجهها في أوج التوتر:

- لقد تحدثت للتو مع «تيتشر». عليكِ أن تساعدينا.

حدّقت لانا بها. كان الوقت صباحاً. ولم يرد في ذاكرة لانا أن «مزال» تمكنت ذات مرة من التواصل مع «تيتشر» في ساعة كهذه. ما الذي...؟

- سارعت «مزال» لتوضيح الأمر: راودني إحساس ما جعلني أصعد إلى البرج. أغربُ ما في الأمر أنني تلقيتُ رسالته على الفور. «تيكي» معهما الآن، لكن الضباب كثيف جداً، وهذا ما يجعلهم يضيعون أثره في كل مرة يحاول فيها أن يدلهم على الوجهة الصحيحة. قال لي «تيتشر»... توقفت «مزال» لتلتقط أنفاسها ثم قالت مجدداً: قال لي «تيتشر» إنك تعرفين ما عليك فعله.

- شَعَرَتْ لانا بالدماء تقطر من وجهها. لكن لا يمكنني فعل شيء.

- صاحت مزال وهزتها بقوة. لكن ينبغي أن تفعلي شيئاً. عليكِ أن تعرفي كيف تفعلين ما قال «تيتشر» إنك فعلته من قبل. افعلي ذلك الآن.

وقفت لانا ترتجف. كيف عرف «تيتشر» ما كانت لانا قادرة على فعله ذات مرة؟ هي لم تخبر أحداً بذلك على الإطلاق. ثم تذكرت أنه لطالما بدا «تيتشر» أنه يعرف ما يجول في أفكارها من دون أن تخبره بذلك.

- همست لانا: سأحاول. سأفعل ما بوسعي. لكن مَرّ وقت طويل منذ... ثم أضافت. لقد تحدثت إلى «جيمسي». سينتخبون «أورلو» هذا المساء. و«أورلو» والمفوض يريدان الاستيلاء على البيت. حَدثَتْها بكل ما أخبرها إياه «جيمسي».

– فجأة بدت «مزال» مثل نمرة غاضبة. يا لهما من زوج قذر مثير للاشمئزاز! إنني لم أفصح لـ«شان» عن الأسلحة. أنت تعرفين كم يكرهها. لكنني كنت قد خبأت سلاحاً ليزرياً. وصدقيني أنني سأشهره. إن حاولا الاقتراب من الكوخ، سيكون ذلك فوق جثتي الهامدة.

– شاركتها لانا نفس الموقف بعد أن تذكرت الفأس وحسمت أمرها بشأن تسخيره سلاحاً: وفوق جثتي أيضاً. سأدخل الآن إلى غرفتي. لا تدعي أحداً يزعجني.

تمددتْ في غرفتها على السرير وأغلَقَتْ عينيها. ثم فكرت: «تيكي»، «تيكي»، سأحاول الوصول إليك. لا تخف أرجوك.

لكن الجزء المريع كان خوفها الدفين. فهي لوقت طويل كانت عاجزة عن تخيل «تيكي» بسبب المسافة المروعة بينهما. لطالما كانت ترى وجه عدوها الوحشي والمنذر بالخطر يستطيل على مسافة الأميال التي ينبغي عليها بطريقة ما أن تعبرها.

صاحت مرة ونهضت من السرير مرتجفة تدرك أن عدوها قد هزمها. وبالإرادة وحدها أجبرت نفسها على الاستلقاء مجدداً وطرد أفكارها المهزوزة.

حدث ذلك بسرعة كبيرة ويُسر لدرجة أنها لم تعِ البحر. في لحظة كانت في «هاي هاربور»، وفي الأخرى كانت تنظر بعَينَيْ «تيكي» إلى الضباب الكثيف. كانت تدرك كثيراً من الأمور في تلك اللحظة –اندهاش «تيكي» من وجودها، وخفقات قلب الطير المتسارعة، والشعور الحر الجامح من ركوب الهواء فوق جناحين ممتدَين بينما كانت تتجاوز المركب الغريب بركابه الثلاثة الهزيلين. كانت تشعر باندهاش من تلك المرأة التي نسيتها تقريباً، وبدفق من الدفء والسعادة حيال «تيتشر»، تبع ذلك فرحة عارمة مفاجِئة، فاقت أي فرحة عرفتها من قبل، عندما بدأت تحلق بالقرب من كونان. صرخت بصوت «تيكي» مبتهجة، وطارت حوله، وداعبت بجناحَي «تيكي» وجهه الهزيل وشعره المُصْفَر. ثم

حلقت أمامه كأنها بوصلة حية ترشده إلى الوجهة التي أخبرتها غريزة الطير أنها الوجهة المقصودة.

سَمِعَتْ كونان يقول: «تيكي»! ما الذي حدث؟ ما الذي أتى بك؟

رد «تيتشر»: إنه ليس «تيكي» الذي تتحدث إليه الآن. إنها لانا. لقد أتت ترشدنا إلى طريق العودة.

***

بدأ الضباب ينحسر في اليوم التالي، ولم يبقَ منه بحلول منتصف فترة الظهيرة سوى حجاب رقيق زاحف. فجأة تلاشى كلياً، ورأى كونان مدخل الميناء أمامه. خلفه انتصبت سفينة المقايضة تُثبتها مرساتها في منأى عن الريح.

- رأى الطبيبة «مانسكي» تحدق بسفينة المقايضة، ثم قالت لـ«تيتشر»: أنت حذرتهم؟ هل وصلتك الرسالة؟

- رد «تيتشر»: أجل، وصلتني رسالة من «مزال» صباح اليوم. قالت إنها أخبرت الجميع في «هاي هاربور»، لكنها تشك أن «دايس» صدق ذلك. من الواضح أنه لم يصدق.

- أضافت الطبيبة بقسوة: الغبي! الغبي الأحمق!

- هز «تيتشر» رأسه الأبيض. أخشى أن الأوان قد فات الآن. سنكون من المحظوظين إن تمكنا من النجاة بأنفسنا. لم يبقَ مزيد من الوقت.

وبينما كانوا يتجهون إلى المدخل، تركهم «تيكي» للمرة الأولى وطار نحو الشاطئ. نظر كونان نظرة سريعة إلى البحر الذي يغلفه الضباب بعيداً، وأفلت دفة القيادة، وتمنى لو أن الرياح تظل ساكنة لفترة أطول. كانوا قد وصلوا تقريباً. وعلى الرغم من عدم يقينه في تلك اللحظة، فإنه لم يستطع كبح شعوره المفاجِئ بالسعادة الغامرة. لقد فعل هو و«تيتشر» ما ينبغي فعله. وفي غضون دقائق قليلة، سيرى لانا مجدداً. لانا بشحمها ولحمها. غمرته رغبة بالصراخ.

كان الميناء غريباً عليه، وكان يواجه صعوبة في تحمل مشقة وجوده فيه. عندما كان هنا آخر مرة، كان الميناء وادياً صغيراً يمر في قعره تيار مائي. أين هو الآن؟ استدار فجأة ليتفحص المنحدر الطويل على يمينه، ثم لمح برجاً يرتفع فوق الأشجار. دفع المقود دفعة أخرى، ومال المركب فوق المياه الضحلة، وارتفعت مقدمته فوق الشاطئ الصخري.

– قال «تيتشر»: ابتعد عن هنا. ارتفع فوق المنحدر. بسرعة.

سارعوا باجتياز الشاطئ، بعد أن عثروا على طريق ملتف، ثم تقدموا إلى الأمام. بعد مضي مدة طويلة في البحر في مركب صغير، بدت اليابسة تهتز تحت قدمي كونان المتأرجحَتَين. كان متعباً، وأدرك أن «تيتشر» والطبيبة على حافة الإرهاق تقريباً. توقف بعد صعود قصير، وتركهما يلتقطان أنفاسهما. واستطاع الآن أن يلمح من بين الأشجار الكوخ الحجري الشهير. وبينما كان يحدق في الكوخ، ذُهل لرؤية أشخاص آخرين يتسلقون المنحدر أمامهم. عدد كبير من الأشخاص كانت الأشجار قد أخفتهم.

– صاح: هيه! ثمة أمر ما يحدث هناك.

بدأ يندفع مسرعاً نحوهم، ثم توقف بعد أن سمع الصوت الذي طالما تحدث إليه في الأوقات الحرجة.

– حدثه الصوت: كونان، ما فَعَلْتَه إلى الآن هو البداية. إنهم بحاجة إلى أن تكون القائد هنا.

– صرخ كونان محتجاً، واستدار إليهما: لا، هل سمعتما صوتاً الآن؟

– نظرت إليه الطبيبة «مانسكي» باستغراب وقالت بتردد: لقد سمعتُ صوتاً. كان خافتاً للغاية، لكنه أخبرني أنك جُلِبتَ إلى هنا لتكون القائد، وأنه ينبغي عليّ أن أبقى هنا وأقدم المساعدة. ثم نظرت إلى «تيتشر» وقالت: هل...

– أومأ الرجل العجوز برأسه. لقد فتح البحر أذنك الداخلية يا دكتورة. عرفنا كلانا الأمر نفسه عن كونان.

- احتج كونان مجدداً: لا، لا أريد أن أصبح قائداً. حباً بالله، إنه مكانكم أنتم...

- الصغار فقط هم الذين يتبعون كبار السن يا كونان. اليافعون يتبعون اليافعين. وينبغي أن يتحلى القائد بالقوة. ثمة أمر طارئ هنا الآن، وما من أحد سواك يمكن أن يجد حلاً له. لكن ينبغي أن تسرع.

استوعب كونان الكلام وشق طريقه مُحبَطاً. لم يكن قد ابتعد بضع خطوات حتى ظهر فجأة من خلف شجرة صبي صغير برأس أحمر، يحمل في يده قوساً، ويحدق فيه بعينين جاحظتَين. سأله الصبي: هل أنت كونان؟ أليس «تيتشر» الرجل الذي يقف خلفك؟

- أجل، ما الذي يجري هنا؟

- إنه «أورلو». لقد نصّب نفسه قائداً، ويريد أن يستولي على كوخ الطبيب. لكن بعضاً منا لا يعجبهم ذلك. «أورلو» انضم إلى «النظام الجديد».

استدار الصبي وراح يقفز مثل عنزة صغيرة. بعد قليل سمع كونان صراخه الغاضب. إنهما هنا! كونان و«تيتشر»! إنهما هنا!

جعل تصريح الصبي بعضاً من الجمهور المحتشد ينزلون إلى أسفل المنحدر. كان يتقدمهم قائد قوي البنية بلحية سوداء، أدرك كونان أنه المفوض «دايس». في محيط المفوض، انتشر نصف دزينة من بحّارة «النظام الجديد» لسد الطريق.

توقف كونان قليلاً، وتمايل على قدميه المتأرجحتَين، بينما كانت عيناه تتطلعان إلى الشباب المصطفين دائرياً إلى اليسار منه. أكانوا يحاولون الوقوف في طريقه وإجباره على التراجع؟ فوجِئ لرؤية مجموعة أخرى من البنات والفتيان يحملون العصي والأقواس، ويقتربون بحذر إلى ميمنته. كانت هذه المجموعة غاضبة، واستطاع أن يلحظ إحساساً بعدم اليقين والخوف ممتزَجَين بغضبهم. صاح أحد الصبية. انتبه يا كونان. تلك المجموعة القذرة تريد النيل منك. مجموعة «أورلو» المرابطة وراءك.

بدا من غير المعقول أن يحدث أمر كهذا في مواجهة ما هو قادم. ألم يكن لديهم أدنى فكرة عما ينتظرهم.

فجأة بدأ كونان يطلق التحذيرات في محاولة منه لإخلاء المنحدر. لمح «تيتشر» القَلِق واقفاً في آخر الطريق، يحاول عبثاً فعل الشيء نفسه. لكن أحداً لم يستوعب الموقف، وفي اللحظة التالية انقض عليه المفوض وطوق ذراعيه.

- ثرثر «دايس» بضع كلمات: أنت سجيني. صدقني ستدفع الثمن لأنك ساعدتَ «باتش» في الهروب. خذوه يا صبيان، وخذوا «باتش» الواقف هناك. رافقوهما إلى السفينة واحبسوهما.

- أبعد كونان اليدين المُقَيدَتَين جانباً، ودفع «دايس» إلى الوراء، ثم صرخ بأعلى صوته. حاول أن تلمس «تيتشر»، وسأهشم رأسك. هل فقدتم كلكم عقولكم؟ ألا تعرفون أنكم في خطر هنا؟ اصعدوا إلى أرض مرتفعة. أسرعوا جميعاً.

تراجع البحّارة مذهولين لما رأوه من قوة فيه وإلحاح في نبرة صوته. لكن «دايس» اندفع نحوه بغضب يقول:

- الخطر من أي شيء؟ أنت بحاجة إلى أن ألقنك درساً... ثم اتسعت عيناه لرؤية الطبيبة «مانسكي» تندفع غاضبة على الطريق المتعرج.

- صاحت في وجهه: أنت أحمق وغبي! لقد عرفتَ بأمر الموجة. ألا تعرف أن أي جسم يقترب من هذه المسافة من الميناء يمكن أن يُقتل؟

- ما هذا الكلام الذي تقولينه؟ لم يأمرك أحد بالمجيء إلى هنا. أين سفينتك؟

- ردت الطبيبة بقسوة: لقد غرقت. وهذا ما سيحل بسفينتك عما قريب. ها أنا أخبرك أن موجة من المدّ في طريقها إلينا -تسونامي...

- صفعها المفوض بغضب وصاح قائلاً: ما من موجة ستأتي إلينا. هذه القصة مجرد خدعة. من الأفضل أن تُحتَجِزي معهما. تعالوا إلى هنا يا فتيان. «أورلو» ساعدني.

تمكن كونان من إلقاء نظرة سريعة في اتجاه «أورلو». وتعرف على الفتى الهزيل الطويل تحت سترة جلد الماعز المتسخة، ثم بدأ يصرخ مجدداً محاولاً أن يبعد الحشد ويجعلهم يصعدون إلى أعلى المنحدر بأمان. لكن مزاجهم الحالي لم يكن يسمح لهم باستيعاب خطورة الأمر. كانوا يكرهون «أورلو» لكنهم يخافون منه في نفس الوقت. أدرك في خضم شعورهم بالخوف أن عليه فقط أن يحشدهم ضد «أورلو»، وسيتحول المنحدر إلى ساحة معركة.

في غضون دقائق، أو لحظات حتى، سيكتسح جدار هائج من الماء المنطقة بأكملها.

- سمع «أورلو» يضحك: هذا الكلام عن الموجة المجنونة مجرد هراء لا أكثر. لقد اجتاحتنا موجات سابقاً. هيا يا فتيان، دعونا نساعد بابا «دايس».

- استدار كونان نحوه. حباً بالله يا «أورلو»، إن بقيتَ هنا ستُقتل أنت وجميع من معك. هيا اذهبوا جميعاً. اصعدوا إلى أرض مرتفعة.

- رد «أورلو» بكسل: اخرس! أم إنك تريدني أن أقطعك قطعاً، وآخذك إلى السفينة مُقَطّعاً؟ وبينما كان يحدق بشخص يسرع في النزول من المنحدر، اكتسحت تكشيرة وجهه الداكن وقال: مهلاً يا فتيان. ها قد أتت عصفورتي الصغيرة.

سمع كونان صوتاً مألوفاً يصرخ باسمه. للحظة هاربة من الزمن، نسي كل شيء عندما رأى لانا بشعرها الباهت المتطاير وعينيها السوداوين الكبيرتين في وجهها تسرع بالمجيء إليه. اندفع نحوها، ولكن قبل أن يصل إليها، قفز أورلو مبتسماً وأمسك بذراعها. لَفَظَتْ أنفاسها بألم.

- قال كونان بحزم: اتركها تذهب قبل أن أطُقّ رقبتك.

دفعها «أورلو» جانباً والتكشيرة لا تزال على وجهه، ثم انتزع عصا سميكة من أحد أفراد العصابة، ولوّح بها بشراسة.

وبينما كان يقفز ويستحوذ على العصا قبل أن تلمسه، تساءل كونان في نفسه كيف يمكن له أن يحل هذا المأزق الجنوني بسرعة. لوّح بالعصا، وأوقعها، وضرب بقبضته «أورلو» لمرة واحدة. ثم أمسك بالفتى الهزيل، وقلبه على رأسه، وقذف به أسفل المنحدر.

رأى من زاوية عينه مفوض المقايضة مذهولاً مما يحدث، وأنه سحب بغضب سلاحه المعلق بالحزام. التقط كونان عصا «أورلو»، ولوّح بها، وجعل السلاح يطير في الهواء. ثم صرخ. اركضي يا لانا. اركضي إلى الكوخ.

- وبينما كان يلوح بالعصا، أمر الفتيان المنبهرين. تحركوا يا أغبياء. أم هل ينبغي أن أضربكم جميعاً حتى أنقذ رقابكم؟

هربوا منه كما يهربون من رجل مجنون غاضب. وكالمجنون استدار إلى بقية الفتيان وقادهم إلى برّ الأمان.

كان قد صعد إلى منتصف المنحدر عندما سمع صراخ أحدهم، واستدار ليتعرف على صوت آخر آثار فضوله. رأى المياه وقد انحسرت عن الميناء بفعل حدث غير مرئي كان يقترب من وراء رأس اليابسة. وهو يحدق بها، تعرف على الجسم الطافي داخل سترة من جلد الماعز وهو يحاول من دون جدوى أن يشق طريقه زاحفاً إلى الأعلى.

أدرك كونان الأمر بسرعة والتقط العصا. فجأة اندفع مسرعاً إلى أسفل المنحدر، وأمسك «أورلو» من ذراعيه، وبدأ يشق طريقه نحو الأعلى مرة أخرى بأسرع ما يمكن له أن يقود جسده المتعب.

وصل إلى منتصف الطريق ولمح مفوض المقايضة يقف ممسكاً بشجرة، وينظر نظرة تشكيك أجوف إلى سفينته المقلوبة على أحد جانبيها في الميناء الفارغ.

صرخ مُحذراً الرجل، ولم يكن قد تسلق بضع ياردات حتى انفجر العالم فجأة من خلفه. لم يرَ كونان ارتفاع المياه الشاهق الذي غمر

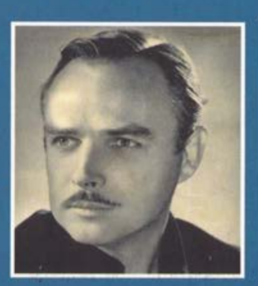
رأس اليابسة كلياً، تاركاً الميناء يغرق في فيضان هائل. لكنه سمع هديره القوي، وشعر أن الأرض تهتز من شدة العاصفة. ثم طُمِس العالم بالرذاذ المتطاير، وأحاط المد بالمنحدر، وسحب كونان بقوة، وزحلق قدميه من تحته.

تمكن بطريقة ما من الارتكاز على ثقله، وعلّق إحدى ذراعيه بشجرة. انتهى كل شيء خلال لحظات، وانحسرت المياه الهائجة إلى أسفل المنحدر بالسرعة التي ارتفعت بها. جثا على ركبتيه، وحاول سحب «أورلو» نحوه. لكن هذه المرة خانته قوته.

ومن مكان ما، امتدت على عجل، أيادٍ راغبة بتقديم المساعدة.



تندرج رواية «المد الهائل» ضمن أدب الخيال العلمي، وقد نشرها «ألكسندر كي » عام ١٩٧٠ . وهي تحكي قصة كونان، صبي يعيش بمفرده على جزيرة صغيرة بعد أن أحالت الحرب العالمية الثالثة الأرض دماراً بفعل الأسلحة المغناطيسية. حينها انقلبت محاور الكرة الأرضية، وغَرِقَت القارات في المحيط، ولم يبقَ منها سوى بضع جزر صغيرة.
بعد أن نجا كونان من تلك الكارثة المؤلمة التي حلت بالأرض، وجد نفسه في عالم جديد مختلف تماماً عن العالم الذي عرفه من قبل.



تتنقل أحداث الرواية بين عالَمي كونان ولانا عقب انتهاء الحرب المُدَمِرة. كان كونان يعيش وحيداً في جزيرة نائية، ولانا تعيش في «هاي هاربور» مع خالتها مزال وعمها الطبيب «شان» زوج «مزال». بعد مرور خمس سنوات على النجاة، يعثر طاقم سفينة النظام الجديد على الجزيرة التي يقيم فيها كونان، وقد ناهز السابعة عشرة حينها، فيسوقونه أسيراً إلى مدينة «إندستريا » للعمل فيها وخدمة المسؤولين عنها. يلتقي هناك ب «تيتشر» المتخفي بشخصية باتش، الرجل العجوز الذي يصنع القوارب في «إندستريا»، ويجيد التواصل عن بُعد مع ابنته «مزال». وقد تعمّد «تيتشر » إخفاء اسمه الحقيقي، «برياك روا»، ذلك أن قادة النظام الجديد في بحث مستمر عنه، بغية أَسْرِه والحصول على ما لديه من معارف لإعادة ابتكار التكنولوجيا التي كان العالم القديم يمتلكها.


ISBN 978-9933-6174-4-8
9 789933 617448